

الدكتور

محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

راجعه وخرج أحاديثه

د. محمد محمد العاصى

المدرس بجامعة الأزهر

رأى الدين

الدكتور

محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

راجعه وخرج أحاديثه

د. محمد محمد العاصى

المدرس بجامعة الأزهر

كتـــاب قد حـــوى دررا ∴ بعـين الـحسن مــلحوظة

لهذا قلت تنبيها

مطابع التوحيد
شبين الكوم ت ٠٤٨/٣١٥٤٢٠

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

تمهيد :

فى التاسع من أكتوبر عام ١٩٥٧م تسلمت عملى مدرسا بمعهد أسيوط الدينى.

وفى أول لقاء مع طلابى.. فاجأنى أحدهم بسؤال : ماهو «الأب» المذكور فى قوله تعالى :﴿وفاكهة وأبا﴾[١] وذلك بعد أن قلت لهم : أى سؤال !! وقد أحسست عندئذ بأن الإجابة الفورية عن السؤال .. مما يحفظ «هيبة الشيخ» الذى قوبل بالحفاوة منذ قليل ! .. حتى ولو لم يكن متأكدا من صحة الجواب !

وفعلا .. تسرعت فقلت :

إنه نوع من الفاكهة !

ولمحت الطالب السائل يهمس فى أذن زميله .. همسة مصحوبة بابتسامة صفراء .. تعنى أن الشيخ لم يجب عن السؤال !؟

وكان من لطف الله تعالى بى أن ألهمنى فى نفس اللحظة أن أوجه الحدث إلى الطالب قائلاً :

إذا كانت الفاكهة بالنسبة لك هى : التفاح ، والبرتقال .. فإن الفاكهة بالنسبة للحيوان هى : الأب [وهو المرعى الذى لم يزرعه الناس مما تأكله الدواب والأنعام. يقال : الفاكهة للناس . والأب للدواب][٢].

ولقد ظل هذا الموقف متوهجاً فى ذاكرتى .. لاينسى .. يؤكد :

١- أن البداية غير الطبيعية .. تسلم إلى نهاية طبيعية :

فالمدرس حين يستفتح لقاءه مع تلاميذه قائلاً :

أى سؤال .. أنا مستعد للجواب !

---

(١) سورة عبس آية «٣١» .

(٢) المصباح المنير.

هذا المدرس لابد أن يلاقى هذا الحرج..

٢- ولكن .. مادامت النوايا سليمة .. فإن الله تعالى : يقدر البلاء .. ثم يلطف بعبده فى النهاية..

وقد لطف بى إذ أخرجنى من هذا الحرج .. بهذا التحايل الذى أنهيت به فترة من حياتى .. كنت أظن أننى أملك من العلم شيئا مذكورا .. لأستأنف مرحلة أخرى.. أحترم فيها تخصصى .. وقدرتى وأن الأمر على مايقول سبحانه :

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (١)

وحتى الآن .. وفى لقاءاتى فى مصر .. وخارج مصر .. أجدنى تلقائيا أتحفظ .. وآخذ الضمان لنفسى من المستمعين الذين أشعرهم بأننى لست مفتيا.. فرارا من سؤال قد يعيينى جوابه ..

ولقد كنت فى نفس الوقت منطقيا مع نفسى :

١- فأنا خريج كلية أصول الدين .

والأصوليون معنيون «بالحكمة» وليس «بالحكم» .. الذى له رجاله ..

فالمفتى : يعطيك الحكم ..

والداعية يفلسف لك هذا الحكم .. بالبحث عن أسراره. وكيف نسقطه على الواقع.

٢- ثم بحكم نشأتى فى الريف..

والنشأة فى الريف تعنى : حب الجمال .. والحرية .. والانطلاق .. بمعنى أننى أملك «مخيلة» ولا أملك «ذاكرة» واعية .. لابد منها لمن جلس مجلس المفتى ... ومن أجل ذلك .. كان أصعب أبواب الفقه لدى - حتى الآن - هو باب الميراث.. لأن جوهره الحساب .. أو العذاب.

---

(١) الإسراء الآية «٨٥» .

وأذكر أننى - وأنا طالب بالقسم الابتدائى - ظللت أربع سنوات لا أحس بطعم النجاح تماما .. أو شعرت به «مع إيقاف التنفيذ» وذلك إلى أن حصلت على «الشهادة الابتدائية» والتى يعنى الحصول عليها الفراغ من دراسة مادة «الرياضة» ومافيها من جمع .. وضرب .. وطرح .. وقسمة .. مما يصطدم بطبيعة الأديب الذى لايجيد الجمع والطرح..

والشئ الذى يجيده هو الخيال السابح به فى مجالى الطبيعة .. وراء آيات الله تعالى فى الآفاق ..

وأحياناً كان السؤال ينزل على كالصاعقة . وبعد أن نجح اللقاء فى مناسبة ما..

ولكن الله تعالى كان يلهمنى .. حسن التخلص من ورطته :

سألنى سائل ليلة :

ماحكم من قتل فى حرب أكتوبر من أهل الكتاب .. وهل يعتبر شهيدا:

وأجبت على الفور :

إذا كان السائل مسلما .. فهو يعرف الحكم .

وإن كان كتابيا .. فليسأل رائده الكتابى !

وبهت الذى سأل !!

ومع ذلك كله فقد طلب منى أن أسهم فى برنامج «رأى الدين» و«بريد الإسلام» وكنت أرغب فى الرد على الأسئلة ذات الطابع الاجتماعى . لكن إسهامى لم يدم طويلا .. بعدما تردد فى أوساط إعلامية بأن « **الفتوى قد تأدبت**»..

وكأنما كانت الفتوى المتأدبة نشازا فى لحن متباسق ..

فاستغنى القائمون على هذه البرامج عنى .. لأننى متأدب والفتوى لاتعرف الأدب.

ولقد سمع معى أخى أ.د **محمد رأفت سعيد** من يقول لى :

إن أسلوبك رشيق ..

ولأنه رشيق .. فقد افترق الصحاب : كل فى طريق ؟ لماذا ؟

لأننى متأدب .. والفتوى لاتعرف الأدب ..

ولقد كان ذلك عيبا أعتز به .. وهو المعنى الذى قصد إليه الشاعر القائل:

ولاعيب فيهم ..غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب !

إنهم يريدون الفتوى .. معلبات مصنعة .. تقدم جاهزة لمن أراد ..

ولكن المشكلات العائلية والنفسية .. لا تنحل بهذه المعلبات - على أهميتها- وصحيح أن الحكم الشرعى المحدد .. لايحتمل الصياغة الأدبية التى قد تختفى معها معالم هذا الحكم..

لكن أسئلة المستمعين لاتنحصر فى : هل يجوز .. أم لايجوز .. **وإنما هناك مشكلات تحتاج إلى قلم الأديب .. ولا يكفى فيها حكم المفتى ؟**

خذ مثلا :

امرأة تسأل : إنها بعد ما نقلت إلى سكن جديد .. وجدت «حبها القديم» فى نفس المبنى .. ماذا تفعل ؟.

وجاءها الحكم بالويل والثبور لو أنها نظرت إليه .. أو حدثته !

ولكن المشكلة هنا فى حاجة إلى براعة الأديب الذى يحلل .. ويصف العلاج.. فى مشكلة تحتاج إلى .. جرح قلب وليس إلى من يقول : افعل .. ولاتفعل !!

ثم .. هذا المستمع الذى جاء معترفا بذنبه .. نادما عليه أشد الندم ماذا يفعل..

ويجيئه الجواب تهديدا ووعيدا عن طريق حشد من الآيات والأحاديث التى يواجه بها..

إن المشكلة هنا ليست فى الجهل بالحلال والحرام..

وإذا كانت «الهرة» تعرف مايجوز ولايجوز .. حين تقف إلى جانبك تأكل قطعة اللحم التى تعطيها إياها وهى مطمئنة .. وهى هى التى تهرب منك لو أنها خطفتها من المطبخ خطفا!

أفلا تعرف السائلة حدود الحرام والحلال ؟

ولكن حظها شاء أن تسأل **مفتى «النص»** وهو الذى أجاب من قتل تسعة وتسعين نفسا بأنه لاتوبة له !

أما المفتى الثانى : فقد أبحر فى نفسه .. ثم حللها .. فأكد له قبول توبته .. بل تحدى من يقول بغير ذلك ! وعندئذ توقف مسلسل الدم .. وانتصر الداعية الإنسان.. فى إنقاذ إنسان .. بل فى إنقاذ مجتمع كامل من عنصر إرهابى .. يتحول اليوم على يديه ليكون داعية من دعاة السلام.

ومازلت أقول :

لابد من الأدب الذى يهيئ النفوس لتقبل الحكم أولا .. ثم لتطبيقه ثانيا..

وفى حديث لى مع **الأستاذ الفنان «فؤاد المهندس»** وكنت أسجل معه فى نفس الاستديو برنامج «تقدمة التلاوة» قال لى الرجل :

لقد سمعت منك شيئا غير عادى ..

ولايهمنى الإطراء هنا .. بقدر مايهمنى أن «الواعظ» المتأدب استطاع أن يؤثر فى الفنان .. بلون من الثقافة لم يجد من يلفته إليه.

أما بعد

فقد أردت بما سبق أن يكون تمهيدا لهذه الصفحات التى كانت حصيلة اشتراكى فى برامج الفتوى .. فلعلها أن تضيف جديدا إلى القارئ الكريم . ولعلها أيضا أن تؤكد ما رأيناه من ضرورة أن يكون الأدب «مقتضيا» للفتوى وليس «مانعا» لها..

هذه الأفكار التى قدمتها على النحو الآتى :

قد يكون الرد واضحا بذاته .. فلا أذكر السؤال . مكتفيا بعنوان يشير إلى الموضوع.

وأحيانا أسأل «هاتفيا» .. فإذا كان الجواب آية كريمة أو حديثا شريفا .. شرحت ذلك بما أراه مقنعا ..

وأدعو الله تعالى أن يكون ذلك فى ميزان حسناتى

د. محمود محمد محمد عمارة

مامدى مسئولية الإنسان عن خواطره النفسية وكيف يتلافى السيئ منها؟

يموج باطن الإنسان بعالم من الأسرار والأفكار.. بعضها .. يقصده باختياره.. ولايجد حرجا فى إعلانه .. وهناك بقية من الخواطر يستحيى أن يبوح بها.. لاصطدامها بعقيدته وفطرته ..

وتمر مثل هذه الخواطر بمراحل :

تكون أولاً هاجسا .. يهجم على الذهن فى غفلة منه .. ثم خاطرا .. يخطر .. يتحرك .. فى داخلك .. يريد الاستقرار .. ثم تصحو أنت على حركته .. فيدخل فى دائرة انتباهك .. وتدور حوله قائلا :

هذا الخاطر : حق .. أم باطل

مقبول أم مرفوض

وهذا هو حديث النفس ..

فإذا مالت نفسك إليه قبولا .. أو رفضا .. فقد تقدمت على الطريق خطوة رابعة .. من حيث كان ذلك الميل هما منك .. أصبحت منه على مشارف العمل بهذا الأمر..

إلى هنا .. فلا تثريب عليك .. حيث لا ذنب لك فى أمر فرض عليك .. ولايمكن الاحتراز منه .

فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ..

أما العزم وهو التصميم على العمل قصدا جازما .. والعمل بمقتضاه .. فهو مايسأل عنه الإنسان .. لأنه داخل فى دائرة اختياره ..ولم يفرض عليه كسابقه .

ويهمنا أن نذكر هنا أن هذا السؤال قديم .. جديد .. فقد روى أنه لما نزل قوله تعالى :

﴿ وإن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله .. ﴾[١]

لما نزلت شكا المؤمنون من الوسوسة وشق عليهم المحاسبة بها .. فنزل قوله تعالى :

﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[٢]

ويهمنا فى الجواب أن نلفت نظر السائل الكريم إلى **أمرين** :

أولاً : ماهو الباب الذى تأتينا منه الريح .. فنسده ونستريح؟

ثانياً : كيف نحبط مفعول هذه الأفكار؟ .. كيف نبطل مفعول هذه الألغام التى يبثها العدو اللدود فى طريقنا ؟

أما مصدر هذه الخواطر المحرجة .. فهو الشيطان .. فلنحذره على ديننا ..

وأما كيف نحذره ونبطل كيده . فعلى النحو الآتى :

١- ضرورة الدور البشرى فى صد هذه الهجمة الماكرة.. وذلك بوقف هذه الأفكار .. بتجميدها.. أو ردها.

٢- الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم.

٣- أن يقول المسلم آمنت بالله .. إعلانا لهذا الإيمان .. ومغالاة به .. وثقة بدوره فى رد هذا الكيد.

---

(١) سورة البقرة آية « ٢٨٤ » .

(٢) سورة البقرة آية « ٢٨٦ » .

ما معنى أن القرآن كريم ؟

من خصائص القرآن أنه كريم : كل حرف فيه بعشر حسنات .. وهذا ما أشار إليه الحديث الذى رواه الترمذى :

[.... فاقرءوه فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات :

أما إنى لا أقول «ألم» عشر ، وفى رواية حرف ولكن : ألف ولام وميم . ثلاثون حسنة].

فإن عايش المسلم القرآن الكريم تلاوة وتدبرا وعملا فقد استحق جائزته العظمى . والتى أشار إليها الحديث الشريف.

[فى اليمنى : الخلد .

وفى اليسرى : النعيم]

ولا شك أن أحقية المسلم بهذه الجائزة العظمى مرهون بعنايته بهذا القرآن على نحو ماقدمنا.

ولكن القرآن غالب .. عزيز .. ومن ثم فقد لايتاح لكل الناس أن يلم بمعانيه ومراميه .. ولا أن يتلوه ماهرا فى هذه التلاوة..

وهنا يبدو بعد آخر من أبعاد الكرم القرآنى حين لا يحجب الجائزة عن المسلم الذى لاترشحه مواهبه ليرتفع إلى مستوى القرآن فهما وأداء .. بل إن مجرد دخوله فى أفق القرآن وإيثاره على مباهج الدنيا .. والأنس به .. متجاوزا مايشد انتباه الناس من شئون العيش .. كل أولئك واصل به إلى نصيبه من الكرامة وإن قصرت مواهبه عن التحليق فى آفاقه العليا وذلك ماتشير إليه الأحاديث :

ومنها [.. يقال له - أى لقارئ القرآن - :

اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها .. فهو فى صعود مادام يقرأ:

هذا كان أو ترتيلا]

أى مسرعا .. أو مكيثا .. وئيدا

ثم ما روى من حقه فى الثواب إن قرأه :

بفهم .. أو بغير فهم ..

ثم ما روته عائشة رضى الله عنها :

(الماهر بالقرآن مع السفرة البررة والذى يتتعتع فيه له أجران)

والتتعتع : التردد .. والمعاناة .. والمشقة .

المهم أن يحاول القارئ الصعود .. والترقى على قدر طاقته .. وحتى إذا كان تقدمه بطيئا كما تفيد مادة «التتعتع» وماتشير إليه من مقاومة ومعاناة . فإن رغبته الملحة فى معايشة القرآن تثقل ميزانه والثواب على قدر المشقة.

مازال عمل المرأة قضية غير مسلمة لدى البعض ..
فما هو القول الفصل هنا ؟

عندما أباح الإسلام خروج المرأة من بيتها لتعمل .. كان ذلك للضرورة .. من حيث كان العمل ابتداء معقودا بناصية الرجل .. فهو المسئول عن نفقة البيت ..

ولابأس أن تعمل المرأة إذا كانت بلا عائل .. أو كان لها عائل لكن دخله لايغطى نفقة البيت.

ولكن الإسلام لايتخلى عن شرطه أبدا وهو : ضرورة التزام المرأة بالزى الإسلامى : الساتر .. السابغ .. الوقور . صيانة لكرامتها أولا .. ثم حفاظا على مشاعر الآخرين .. الذين سوف يثير التبرج شهواتهم إثارة تتحمل هي بالدرجة الأولى عقباها .. لأن الشر بالشر .. والبادئ أظلم . ونذكر هنا ماقاله المرحوم مصطفى الرافعى :

لو كنت قاضيا . وعرضت على قضية شاب تحرش بفتاة متبرجة .. لعاقبت الفتاة أولا .. لأنها كشفت اللحم الطرى .. للهر الجائع ! ويتحمل الزوج .. والأب والإعلام نصيبهم بالسكوت .. أو التراخى .. أو الإغراء بإبراز النماذج الرديئة .. بينما تتراجع الأسوة الحسنة .. وقديما قالوا : لا تحكم علّى الرجل من ثيابه .. ولكن: من ثياب زوجته !

والمشكلة هنا ليست مشكلة الجهل بأن هذا حلال .. وهذا حرام :

فالحلال بين .. والحرام بين ..

ولكنها بالدرجة الأولى مشكلة الإحساس الغائب بخطورة تهاون لايصيب المسئول وحده .. ولكنه يتخطاه إلى الآخرين من الأبرياء .. الأتقياء.

ولابد للخروج من العهدة أن يباشر الوالد والزوج دورهما فى التوجيه ..

بالكلمة الطيبة .. أو التهديد بالحرمان من حاجة مهمة .. كسرا للرغبة الكامنة فى التبرج..

على أن يتولى الإعلام دوره فى التمكين لأخلاق الطهر والعفة .. بإبراز المرأة المؤمنة المزهوة بعفتها وكمالها .. لا بثوبها وجمالها ..

بالرغبة فيما يبقى وهو : الثواب .. والعزوف عما يبلى .. وهو : الثياب!

ويبقى أن نلفت نظر الشاب السائل نفسه إلى دوره فى القضية المعروضة :

إنك سائل .. كما أنك مسئول فى نفس الوقت :

أن تكون كما أشارت الآية الكريمة :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا منَ أبصارهم ..

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن .. ﴾[1]

وتقديم غض بصر الرجل دليل على أن رحلة العلاج تبدأ بك أنت :

ذلك بأن سلاح المرأة هو الأنوثة .. وما تزين به نفسها من رياش .. وما تصبه فى سمعك من صوت طرى ..

فحاول أن تغمض عينيك .. ففى ذلك تجاهل بل إهدار لسلاحها الذى تشهره فى وجهك .. والذى جردتها منه بالإعراض فبقيت وحيدة .. عاطلة !

لقد كانت السلعة بالأمس البعيد .. يزداد سعرها .. أو سُعرها .. فيعرض عنها المشترى .. فتبور.

وعليك أن تعلن هذا العصيان المدنى .. السلمى :

حاول أن تتجاهل السلعة المعروضة .. حتى تتبذل .. ثم تبور .. أو تعود المرأة كما كانت : ذات دين .. يتنافس فيها الخاطبون.

---

(١) سورة النور مفتتح الآيتين « ٣٠ » ، « ٣١ » .

هل الدعوة مقصورة على الأزهريين ؟
فقد منعنى بعضهم من القيام بالدعوة لأننى لست أزهريا !

كل إنسان .. مهما كان حظه من الثقافة ضئيلا .. يمكنه أن يدعو إلى الله تعالى فى حدود معلوماته البسيطة ..

والرسول ﷺ يقول :

[بلغوا عنى .. ولو آية]

ومن .. من المسلمين .. لا يستطيع تبليغ آية من سورة الفاتحة اللازمة لصحة صلاته.

أما إذا كانت الدعوة :

كشفا عن مقاصد الدين .وبيانا للوسائل الواصلة بالناس إلى تحقيق هذه المقاصد ..

وإذا كانت شرحا لقضاياه . وإبرازاً للحكمة من وراء أحكامه القويمة وإذا كانت مواجهة لأعداء الإسلام بفضح نواياهم .. وإلزامهم كلمة التقوى. فإنها بهذا المعنى مسئولية المتخصصين.

والمتخصصون هنا ليسوا هم الأزهريين وحدهم :

وإنما كل داع .. فيما يخصه .. وفيما يحسنه.

والله تعالى يقول : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [1] .. العلماء فى كل فن .. لأن هذا الجزء من الآية الكريمة جاء بعد الحديث عن الإنسان .. والأكوان بل ربما كان علماء الطبيعة أقدر اليوم على خدمة الإسلام .. وخاصة فى البلاد الأجنبية بطريق الكشف عن أسرار الطبيعة التى سبق القرآن غيره فألمح إليها..

---

(١) سورة فاطر الآية «٢٨» .

والذين اعترضوا طريق السائل – طالب العلم – على حق :

لأنهم يعودون به فعلا إلى الإسلام .. إلى نقطة البداية .. إلى معملك فى الكلية ..

لقد تركت وظيفتك التى إن تفوقت فيها .. تقدمت بك أمتك وأغاظت بتفوقك الكفار.

لكنك لجأت إلى السهل .. داعيا بالكلام .. إلى ما لا تفهمه من قضايا الدين .. محققا بذلك أمل أعداء الإسلام الراغبين فى تنحيتك عن معملك .. لتظل لهم السيادة فى مجال الاختراع دائما.

وأنت طالب فى كلية عملية :

وبدل أن تدعو إلى اجتماع يضج بالهتاف .. تغنيا بشعار الإسلام .. كان عليك أن تدعو إلى اجتماع يضم :

رجل الطبيعة ..

ورجل الشريعة ..

رجل الطبيعة المشغول فعلا بمستقبل الإسلام .. والذى يعمل فى صمت مع رجل الشريعة المتفرغ لها ليتكاملا معا .. من أجل مصلحة الإسلام.

كانت وصية أمنا ألا نقيم لها مأتما .. لكننا أقمناه مع الإسهام فى بناء مسجد بالقرية فما هو رأى الدين ؟

أحيانا .. كان الشيخ الجليل : حيوة بن شريح يجلس مجلس الأستاذ والتلاميذ بين يديه .. ثم تجئ أمه لتقول له وعلى مسمع من طلابه :

قم يا حيوة .. فألق الشعير للدجاج .. فيقوم !!

وبلا حرج .. مسجلا أروع صور الوفاء ..

وفاء الأحياء .. للأحياء .. وفى مقدمتهم الأم الرءوم ..

أما وفاء الأحياء للأموات .. فأدخل فى باب المروءة .. من حيث كان الوفاء للأحياء واردا .. لأن الحياء فى الوجوه كما يقولون ..

والطرف الآخر .. الجدير بالوفاء .. حى يرزق .. وفى إمكانه أن يحاسب .. أو يعاقب .. أو على الأقل : يعاتب إذا ما قصر الآخرون فى حق من حقوقه.

أما الراحلون من الأعزاء .. فإنهم لايملكون الدفاع عن أنفسهم ومن هنا كان البر بهم .. والوفاء لهم .. لازما

وعندما وصت الأم بعدم إقامة مأتم .. لم تكن مدفوعة بالرغبة فى توفير المال .. فقط .

لكنها كانت تستهدف مايلى:

صرف الثروة فيما هو أبقى .. متجاوزة مايتنافس فيه المتنافسون اليوم من حب الظهور الذى يقصم الظهور !! لتجد هى ماعملت محضرا هناك بين يدى الله تعالى لكنكم أصررتم على إقامة المأتم .. بالإضافة إلى معونة المسجد ..

ومن هنا لم يكن وفاؤكم للوصية كاملا .. لأنكم لم تستوعبوا وجهة نظرها البعيدة ..

وكان من الممكن أن تكون نفقات المأتم سببا فى إعانة أكبر للمسجد المحتاج دائما إلى مزيد من النفقات .. لكنكم خصمتم ما بذلتموه فى المأتم .. من حساب بيت الله تعالى.. بقدر ما نقصتم وصية الأم من أطرافها..

إننا نتفانى فى مجاملة الأحياء .. بالتوسعة فى نفقات المآتم ..

ولكن الأجدر بالمجاملة هم أعزاؤنا الراحلون الذين نوفى بعهدهم ..

ونصون ودهم .. أحياء وأمواتا ..

وعلى كل حال .. فقد حدث ما حدث ..

ويبقى أن نعتبر .. وأن نعمل على أن تبقى ذكرى أحبائنا ماثلة فى صدقة جارية .. تجعل ذكراهم فى وعينا .. شاخصة لا تغيب.

الملائكة : طبيعتهم وأعمالهم

طبيعة الملائكة :

فى تحديد طبيعة الملائكة يقول العلماء :

الملائكة أجسام نورانية . قادرة على أن تتشكل فى صور مختلفة . لكنها كلها حسنة . ولهم عملهم فى الأرض .. وفى السماء :

صلتهم بعالم الإنسان :

وقد بدأت صلتهم بعالم الإنسان عندما قال لهم ربهم :

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١)

أما وظيفتهم الأساسية فهى ما أشارت إليه الآية الكريمة :

﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٢)

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٣)

كما أن منهم الحفظة الكرام . وحملة عرش الحق سبحانه :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴾ (٤)

أعمالهم فى مملكة الإنسان :

أولاً : جعل الله تعالى منهم رسلا يحملون رسالات الله سبحانه إلى أنبيائه عليهم السلام لهداية البشر.

ثانياً : ولا تنتهى مهمتهم عند هذا الحد .. بل إنهم يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء أن يغفر للذين آمنوا :

---

(١) سورة البقرة آية « ٣٠ » .
(٢) سورة التحريم آية « ٦ » .
(٣) سورة الأنبياء آية « ٢٠ » .
(٤) سورة غافر آية « ٧ » .

يقول سبحانه :

﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم .. وقهم السيئات ﴾(١)

وتأمل كيف كانت الملائكة وهم أقباس من الطهر والنور .. لا يحملون الحقد على الإنسان الذى قد تلوثه انحرافات الأرض ..

ولكنهم يبذلون ما فى طبيعتهم النورانية من إشراق .. وتفتح .. وتسامح .. فيلحون فى الرجاء .. أن يلحق الإنسان بركب الأطهار .. وهكذا يفعل الأخيار الذين يسعدهم ألا يحتفظوا وحدهم بالقمة .. بل الذى يسعدهم أن يكون البشر مثلهم سابحين فى العالم الأنسى.

ثالثاً : يكون للملائكة حضور فى المعارك الفاصلة بين الحق والباطل : يربطون على القلوب . ويثبتون الأقدام :

يقول سبحانه :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا .. ﴾(٢)

ولا ننسى درس الشورى .. الذى بدا فى سؤالهم ربهم سبحانه وتعالى :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها .. ﴾

وكيف كان براعة الاستهلال فى قصة الحياة الإنسانية .. لندرك أهمية الشورى فى بناء الأمة .. وعلى كل مستوى :

فى مجال السلطة . ومجال التوجيه ..

فى دنيا السياسة .. والاجتماع .. والجهاد ..

---

(١) سورة غافر الآيات «٧» ، «٨» ، «٩» .

(٢) سورة الأنفال الآية «١٢» .

هذه الشورى التى صارت خاصة من خواص الأمة . فى قوله تعالى :

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾

ثم كانت مما أمر رسول الله ﷺ بالالتزام وهو المؤيد بالوحى . وذلك قوله تعالى:

﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾

ومطلوب من أمتنا أن تعى اليوم هذا الدرس .. بعدما عرضها الاستبداد بالرأى من قبل بعض القيادات .. لنكسة ليس لها من دون الله كاشفة.

سؤال عن : الوحـــى

الوحى هو : الإعلام بالشئ فى خفية وإسرار . عن طريق الإلهام . أو الإرسال. أو الإشارة القائمة مقام العبارة.

وهو بهذا المعنى العام : قاسم مشترك بين الناس . وغيرهم من عالم الأكوان . مثل ﴿ وأوحى ربك إلى النحل .. ﴾

أما **معناه الشرعى** فيتضح من صوره التى ذكرها العلماء :

١- أولها تكليم الله عبده مباشرة . كما حدث ليلة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ . ولسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾.

٢- إرسال رسول من عنده تعالى يبلغ عن الله سبحانه . كما هو الشأن فى نزول القرآن .. نزل به الروح الأمين على قلبه عليه الصلاة والسلام.

٣- الإلهام بإلقاء مراد الحق تعالى فى قلبه ﷺ.

٤- الرؤيا المنامية . كما حدث لإبراهيم عليه السلام فى قصته مع ولده اسماعيل ﴿إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾

خاصية الوحى :

وعندما نتأمل فى خاصية الوحى نجد أن له سلطانا على النفس أقوى من سلطان الطبع الغلاب.

ويتضح ذلك مما أشار إليه العلماء من مثل قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾.

فقد فهمت الوحى . ولذلك صدرت عنها الاستجابة . من أجل ذلك لا تتصور مع الوحى المخالفة.

لأن سلطانه أقوى . لا يمكن مقاومته .

ونتأمل قوله تعالى :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى .. ﴾ الآية.

ماذا حدث بعد أن تلقت الأمر بإلقاء ولدها فى اليم ؟

نفذت الأمر ولم تخالف.

مع أن كل الدلائل تشير إلى هلاكه لا محالة.

لكنها لم تتردد . بل لم يحكم عليها طبعها البشرى.

ولم تتجمدُ يداها وهى تلقى بوحيدها فى واحة الموت .. متجاهلة نداء الأمومة الصارخ بين جوانحها.

وقد فصل القرآن الكريم أنواع الوحى فى قوله تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾(١)

يقول العلماء :

الإلهام والمنام دل عليه قوله تعالى :

﴿ إلا وحيا ﴾

وسماع الكلام من غير معاينة دل عليه قوله تعالى :

﴿ من وراء حجاب ﴾

وتبليغ جبريل عليه السلام فى صورة معينة دل عليه :

﴿ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾

---

(١) آية «٥١» سورة الشورى.

وجه النعمة فى الوحى:

عندما يستفحل الداء .. وتستشرى العلة فى مجتمع ما .. يرسل الله تعالى رسولا بشريعة يشفى بها العلل السارية ..

فالوحى إذن نعمة من الحق تعالى ينبغى أن تذكر فتشكر .. وللقرآن الكريم مكان الصدارة بين ما أوحى الله تعالى إلى أنبيائه على مدار التاريخ .. من حيث مواكبته للحياة . ومواظبته على إبرائها من أمراضها ..

وإذا كان محمد ﷺ قد استجمع عناصر الاستعداد النفسى ليتلقى الوحى وهو قول ثقيل .. ولينهض بتبعاته العظام ..

فإن الله تعالى قد أتم نعمته على أمتنا بهذا الرسول الكريم الذى سدد بالوحى خطانا ..

ويتقاضنا شكر هذه النعمة أن نكون مستعدين دائما لتلقى واردات الوحى الأعلى .. بإرادة صلبة .. وقلب سليم .. وعقل متفتح .. لنكون أهلا لاستمرار النعمة.

مـن أسـرار الدعـاء

الدعاء هو : الرغبة إلى الله تعالى.

وفيه معنى الإلحاح .. والاستغاثة ومنه قيل الداعية .. وهو صريخ الخيل فى الحروب .. وعندما يشتد سعيرها ..

وإذن .. فلا يعنى الدعاء مجرد السؤال .. لكنه يعنى أيضا : الاستغاثة .. بما فيها من تذلل .. وعبودية . ولذلك كان الدعاء مخ العبادة.

وإذا كان للعبادة شروطها كى تكون مقبولة عند الله تعالى .. فماهى شروط الدعاء التى تجعل منه كلما طيبا يصعد فى السماء ؟

تتلخص هذه الشروط فى معان رئيسة تجمعها:

أولها : سلامة النفس بثقتها بربها الذى يجيب المضطر إذا دعاه.

ثانيها : سلامة علاقاته بإخوانه :

أ- فلا يأكل أموالهم حراما .. بل يتحرى الحلال من كسب يده.

ب- ولا يدعو عليهم بإثم ولا قطيعة رحم.

جـ- صحة وقوع المدعو به .. فلا يدعو بمستحيل.

د- أن ينطلق الدعاء من قاعدة مكينة .. وفى الأوقات المباركة .. فعليه أن يختار الوقت المناسب ..

وهو على أوفى معانى اليقظة واستحضار عظمة الله عز وجل.

فإن توفرت هذه الشروط تحقق الأمل بفضله تعالى .. بعد أن طوى الداعى بإخلاصه المسافات .. واجتاز العقبات .. فصار قريبا من ربه تعالى .. يدعوه .. وبلا واسطة .. فيستجيب له سبحانه .. على ما يقول سبحانه :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (١)

أجل يستجيب سبحانه متى تحقق معنى الخضوع الكامل .. ومن تمام هذا الخضوع ألا يحاول العبد فرض شروطه ليتحقق أمله على الصورة التى دعا بها .. لأن من خلقه تعالى أعلم بما ينفعه وبما يضره .. ومن ثم .. فقد يستجيب الدعاء على نحو آخر :

فيرفع الداعى درجة .. أو يمحو عنه سيئة .. واصلا به تعالى إلى وضع أفضل مما يرجو لنفسه.

وهذا الاتصال المباشر بين العبد وربه سبحانه .. تكريم للإنسان يعلو به قدره. ويرفع ذكره .. ويحمله على دوام الذكر والشكر على نعمة من أجل النعم هى :

ذلك الباب العالى .. المفتوح دائما ..

وهذا الإله العظيم الذى يبسط يده بالليل .. ليتوب مسئ النهار .. ويبسط يده بالنهار .. ليتوب مسئ الليل.

وإذا فرضت مذاهب أخرى على الإنسان ألا يصل إلى خالقه إلا عن طريق بشر مثله .. فقد ظهرت روعة الإسلام الذى يغالى بقيمة الإنسان .. هذا الإسلام الذى يجعل من قبضة التراب روحا علويا .. يخترق الحجب .. وفى أية لحظة .. حاملا همومه .. ليتخلص منها هناك .. ثم يغسل بالدموع عينيه .. عائدا إلى الأرض مرة أخرى .. بلا هموم ..

يا من خلقت الدمع لطفا منك بالباكى الحزين

بارك لعبدك فى الدموع فإنها نعم المعين

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٦.

ولا تغلق السماء أبوابها فى وجوه الكفار .. (فدعوة المظلوم مستجابة ولو كان كافرا) .. وهى لفتة لبعض القلوب الضيقة أن تكون أوسع ما تكون .. تخلقا بأخلاق الله تعالى .. ولتتراجع دوافع الأنانية والاستئثار بالخير .. فى كون عريض خلق لنا .. ولغيرنا .. من أناس ليسوا على ديننا .. وعسى فى غد أن يكونوا معنا..

ونذكر هنا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .. فقد كان مستجاب الدعوة .. وتلك نعمة عظمى ..

لكن الرجل لم يستغل هذا القرب من الله تعالى فى الإضرار بالآخرين . وطالما أحس بالمرارة من بعض تصرفات إخوانه ..لكنه لم يدع عليهم أبدا .. فما كان من طبع رجل كرمه الله بالقبول .. أن يسخر النعمة فى غير ما خلقت له .. فأثبت فعلا أنه جدير بأن يختصه الله برحمته ..

اليــوم الآخــر

مما أدرك الناس من كلام العارفين قولهم :

للإنسان أنسان : أنس بالحق . وأنس بالخلق .

فروحه تأنس بالحق . وجسمه يأنس بالخلق.

ويعنى ذلك أن له أنسا بالعقبى - بالآخرة - وأنسا بالدنيا .

وإلى هذا المعنى أشار القائل :

ولقد جعلتــك فى الفـؤاد محــدثى

وأبحث منى ظاهرى لجليسى

فالجســم منـى للجليس مؤانــس

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وإذن .. فلليـوم الآخـر حضـوره الدائم فى القلب السـوى .. وعلى قـدر هذا الحضور .. يكون تقدم الأمة أو تأخرها :

فالذين يؤمنون به خائفون منه وجلون . على نحو يجعل من ذلك الخوف مانعا من الانحراف .. سائقا إلى العمل الجاد المثمر .. وقد يبلغ الإحساس به حدا يحمل المؤمن به على استصغار أعماله مهما كانت كبارا . على ما يقول سبحانه :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركـون . والذين يؤتون مـا آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[١] .

وعلى الطرف الآخر نرى أن غياب عقيدة الإيمان باليوم الآخر .. أو الساعة ..

---

(١) المؤمنون ٥٧ : ٦١.

يقف حائلا بين الأمة وتحقيق آمالها فى التقدم .. بقدر ما يكون سببا فى انحرافاتها .. على ما يقول سبحانه :

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ .. الآيات من سورة الفرقان .. إلى أن يقول سبحانه :

﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾

ففى الوقت الذى يشكل الإيمان باليوم الآخر نقطة التوازن فى الشخصية المسلمة بما يحققه من عمل .. وما ينشئه من مشاعر الرضا فى الدنيا والآخرة .. فى هذا الوقت ترى ليل الكافرين كالحا طويلا .. فلا يسعدون فى الدنيا ولا فى الآخرة .. وكانوا على ما يقول الشاعر :

ظلام ببطن الأم ليس له سر

وليل ببطن الأرض ليس له سر

لعمرى .. كأن العمر متصل الدجى

فأوله قبر وآخره قبر !

ومن أجل ذلك تحرص الآيات الكريمة على الإيمان باليوم الآخر .. ليجد فيه الحائرون ملاذهم . بمثل قوله تعالى :

﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[1]

﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾ [2]

---

(١) المطففين : ٤ : ٦ .

(٢) المزمل : ١٧ : ١٨.

وقد حذرت السنة المطهرة من أهوال ذلك اليوم . على نحو لا يبقى عذرا لمعتذر .. حيث تدنو الشمس من الرءوس .. ويعصف الفزع بالنفوس ..

ويواجه المرء مصيره ليتحمل مسئولية عمله .. وذلك قوله عز وجل :

﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (١)

أما الأنبياء والأولياء والصالحون فهم بنجوة من الفزع . على ما يقول الحق سبحانه :

﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ (٢)

ولو علم الجبارون فى الأرض قسوة ما سوف يلاقون من أهوال ذلك اليوم .. لما كان منهم بغى ولا عدوان ..

ولكن غاشيات الهوى تصم آذانهم فلا تسمع .. وتعمى أبصارهم .. فلا ترى .. ومن ثم ينكلون بالضعاف .. الذين قد ينزفون دما .. لكن الآمال العراض فى يوم قريب .. فى اليوم الآخر .

هذه الآمال تبقى على الحياة فيهم .. وغدا تمر حياة الجبارين كلحظة عابرة ..

ثم يكون الانتقام فى دار هى الحيوان لو يعلم الطغاة من بنى الإنسان .

---

(١) الصافات : ٢٥ .
(٢) الأنبياء : ٧٣ .

الأنبيــاء والرســل

إرسال الرسل عليهم السلام إنما هو لطف من الله تعالى بخلقه . ورحمة لهم . ليتم لهم معاشهم . ويتبين لهم حال معادهم.

ولقد مضت سنة الحق تبارك وتعالى فى خلقه : أن يبعث فى كل أمة رسولا . يخرجهم من الظلمات إلى النور بشريعة يسعى نورها بين أيديهم .. حتى لا يقوم لهم عذر . وذلك قوله تعالى :

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾

وقوله سبحانه ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾

والعقل الإنسانى مهما كان ذكاؤه لا يقوم مقام الرسالة أبدا .. ذلك بأن العقل يعتمد فى تفكيره على المحسوسات .. وهى متقلبة .. فهو منها على خطر عظيم.

ولأهمية الرسالة وإبلاغها فقد اقتضت حكمته تعالى أن يصطفى لها من كان كفئا لتحمل مسئولياتها . بما يستجمعه من صفات الكمال :

فيجب للرسل إجمالا كل صفة :

تعينهم على البلاغ

والبراءة من كل ما ينفر منهم .. ليظل الرسول دائما مركز الاشعاع . **وخاصة صفات :**

الصدق . والأمانة . والتبليغ . والفطانة .

إن وظيفة الرسول هى : البلاغ ..

ولا يتم البلاغ بمجرد القول ..

وإنما يتم بالدرجة الأولى عن طريق القدوة .. فلابد أن يكون الرسول صادقا .. يطابق خبره الواقع . ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾

وأمينا : أى : معصوم الظاهر والباطن من كل محرم . حتى لا يخاصم فعله قوله . ﴿ إنى لكم رسول أمين ﴾

ولابد أن يبلغ كل ما أمر بتبليغه :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾

وإذا كان الحق تعالى قد أمرنا بالاقتداء بهم .. فهذا يعنى أنهم على غاية ما يكون الالتزام .. ولا يمكن أن يأمرنا الله تعالى باتباع من يكتم الحق وهو يعلم.

وإذا كان الرسول لا يعيش وحده .. وإنما له أعداء يقعدون له بكل سبيل .. فقد وجب أن يكون فطنا .. ذكيا .. بل حاد الذكاء .. ليستطيع الإمساك بزمام المبادرة دائما وهو يواجه المكر المبيت من قبل هؤلاء الماكرين ..

ونقرأ عن هذه الصفة وأهميتها قوله تعالى :

﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا ﴾ (١)

وقوله عز وجل :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ (٢)

وما أكثر الدعاة الذين ينزلون ساحة المعركة اليوم .. غير مسلحين بما يجب عليهم من الحكمة والفطنة .. فكانوا عبئا عليها . بما مكنوا الماكرين الأذكياء منهم .. ولقد خدع بهم الدهماء خداعا يتحمل وزره الأدعياء.

ولا يعنى اتصاف الرسل بكل كمال إنسانى أنهم ملائكة يمشون على الأرض

---

(١) هود : ٣٢ .
(٢) الأنعام : ١٨٣ .

.. بل بشر من البشر :

يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .. ويتزوجون .. ولهم ذرية ..

مما لا يؤثر في وظيفة البلاغ ..

أما الأغراض البشرية كالجنون مثلا .. فهم برآء منها ..

ومما روته الأساطير مما أصاب الأنبياء مثل أيوب عليه السلام .. فهو من نسج خيال الفارغين .. أو المغرضين.

على أن هناك فرقا واضحا بين النبي والرسول :

فالنبي هو :

الذي أوحى الله إليه يشرع .. ولم يؤمر بتبليغه ..

والرسول هو :

الذي أوحى إليه يشرع وأمر بتبليغه ..

ومن هنا يتضح الفارق المؤكد سعة مسئولية الرسول .. ودوره في هداية الناس .. وعلى رأسهم جميعا خاتمهم : محمد ﷺ .. الذي اتسعت مسئوليته مكانا : لتشمل البشرية كلها .. وزمانا : إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الجنـــة والنـــار

إذا لم تتسع الدنيا لجزاء الطائعين .. فإن الجنة هى عزاؤهم الذى يعوضهم الله تعالى به .. عما فاتهم من الدنيا .. بما يجدون فيها مما لا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر . وإذا أفلت العصاة من عقاب الدنيا .. فسوف يلقون جزاءهم فى جهنم .. على قدر ما ارتكبوا من خطايا.

وعن نعيم الجنة نقرأ قوله تعالى :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ (١)

فالرسول ﷺ مأمور أن يبشر المؤمنين . الذين يعملون الصالحات .. المصلحات من أمر المجتمع .. يبشرهم بجنات .. فيها من روعة المشاهد وعظيم الفوائد .. ما يسعدهم .. وسوف تتضاعف هذه السعادة .. لأنها متاحة فى صحبة أزواج .. تجعل للمتعة الحلال قيمة .. وسيظل هذا النعيم أبدا .. متجددا .. خاليا من منغصات الحياة الدنيا.

يقول الحق سبحانه :

﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ (٢)

---

(١) البقرة : ٢٥.

(٢) محمد : ١٥ .

وإذن فهى متعة مزدوجة : ينعم بها الجسم .. بقدر ما تنعم النفس بمغفرة من الله ورضوان ..

وهكذا تتم النعمة كمالا ..

على أن المتعة لا تقف عند هذا الحد ..

فالنجاة من النار فى ذاتها نعمة ولو لم تدخل الجنة ..

يقول سبحانه :

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾

وإذا كانت البشارة بالجنة جزءا من منهج التربية الإسلامية .. فإن النذارة بالنار هى الجزء المتمم لهذا المنهج .. حيث يتكامل معنى الترغيب والترهيب معا ..

وعن النار وعذابها نقرأ قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾

ومن نعمة الله تعالى أن يحذر عباده من النار وعذابها ..

فمن شأن التحذير أن يقيم حاجزا مانعا من التورط فى المعاصى .. ليجعل المرء سعيه مقصورا على طاعة تنجيه من عذاب أليم.

وذلك هو الفوز العظيم .

اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك .. فلا تحرمنا الجنة .. ونحن نسألك.

ونسألك تعالى أن تنجينا من النار .. إنك أنت الحليم الغفار .

صور من تكريم الإسلام للمرأة

كرم الله تعالى المرأة تكريما . كان من مظاهره :

أنها إذا بلغت راشدة . زالت عنها ولاية الوصى . ليكون قرارها بشأن مستقبلها بيدها :

أ- فلها حق قبول أو رفض من جاء لخطبتها.

ب- بل لها الحق كذلك فى حماية من جاء طالبا هذه الحماية ولو كان مشركا .. ثقة من الإسلام بها ..

جـ- هذه الثقة التى منحتها أيضا ذمة مالية مستقلة .. تتصرف بمقتضاها فى أموالها كيف تشاء .. محكومة طبعا بروح الإسلام.

وذلك الوضع الاجتماعى المتميز يعطيها حق الدفاع عن مالها الذى كسبته بعرق جبينها .. هذا الحق الذى تحتمى به السائلة الكريمة اليوم .. راغبة فى صد الغارة الهاجمة عليها لحرمانها من مصوغاتها .. ومن .. مَن ؟ من أبيها .. وزوجها . والمفروض أنها منهما فى : واحة من الظل .. لا فى سجن من الذل وإنها لمعركة ليس لها من دون الله كاشفة :

لأنها تستنفر أكثر من داقع فى كيانها :

غريزة التملك ..

وغريزة حب الجمال فى حياة أنثى .. يغريها أن تكون فى عين زوجها .. جميلة ..

وكان المفروض على الوالد .. وعلى الزوج أن يكونا معها فى خندق واحد ضد من يريد بمالها شرا ..

أما أن تجئ القذيفة من منطقة الأمان .. فتلك هى المشكلة ؟!!

ولكل مشكلة حل :

والحل الإسلامى هنا أن تستمسك الزوجة بمالها .. إذا لم تكن لدى الطرفين حالة ملحة تستدعى المساعدة ..

وحتى فى هذه الحالة التى يلح فيها زوج يعلم كيف وقعت زوجته بين شقى الرحى ومع ذلك يضاعف من آلامها بإلحاحه ..

ثم أب لم يعن ابنته على بره .. فمال واحتجب وادعى الغضب .. من أجل الذهب ..

إن القضية هنا ليست قضية ابنة ترفض مساعدة والدها وزوجها لكنه الإباء الرافض هذا الدلال من الرجلين ..

وإلا .. فلو كانا فى حاجة ملحة إلى الذهب .. لما ترددنا فى نصحها بالمساعدة التى تجئ فى ظروف إنسانية لا تتجاهل شخصية الزوجة وذمتها المالية .. وتجعل العطاء مرتبطا بمشيئتها .. إن من شأن القطة فى البيت :

أنك تعطيها قطعة اللحم برضاك .. فتأكلها فى حماك آمنة .. لكنها هى هى بعينها .. إذا انسربت إلى المطبخ وخطفت عُشرها ثم لمحت ربة الدار .. لهربت القطة التى تعرف فرق ما بين الحلال والحرام ..

وهذا الحديث إنما هو رسالة إلى الوالد والزوج معا : فرفقا بالقوارير ..

رفقا بالزوجة الممزقة .. بين أبيها وزوجها .. تمزقا سوف يصيب الذرية كفل منه .. لا يذهب بآثاره مال ..

وقبل ذلك أن ترفق الزوجة بنفسها متذرعة بالحكمة فى علاج الموقف .. شاعرة بأنه إذا لم يكن لهما حق فى مالها .. فلهما الحق فى برها :

فإما إعطاء .. وإما منع بالحسنى ..

وإذا كان الموقف صعبا .. فأصعب منه الخلاف الذاهب بسلامة البيت .. وهكذا الحياة :

تلك الحياة وهذه أثقالها ∴ وزن الحديد بها فكان ضئيلا

بين أبى وابن أعمامى خصام .. وهو يأمرنى بمقاطعتهم .. فما هو الحل ؟

الخلاف بين الإخوة متوقع .. بل هو واقع فعلا .. بل هو للأسف الشديد سمة من سمات هذا العصر المبتلى بأناس لم يكفهم أن حملوا بذرة الشقاق فى قلوبهم حتى حاولوا تصديره للآخرين .. ولو كانوا أبناءهم .. أكبادهم التى تمشى على الأرض ..

هذه الأرض التى يتشاجر فوقها الإخوة .. أو قل هذه الإبل التى تتدافع فتدوس فى تدافعها تلك البراعم الخضراء .. من الجيل الجديد الذى يفرض عليه أن يتحمل مسئولية قضية ليس طرفا فيها .

ولقد حدث ذلك فعلا .. وهو موضوع سؤال المستمع الكريم فماهو الحل ؟

الحل : (كما أن الحكمة تقضى بالجمع بين الحديثين .. بدل إبطال أحدهما ..)

فإنه بإمكانك الجمع بين بر الوالد .. وبر الأعمام فى آن .. كيف ؟

تجميد العلاقات مؤقتا - إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ولا تدرى .. لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .. بمعنى وقف الزيارات التزاما بتوجيهات الوالد الغاضب ..

لكن يبقى حق الأعمام فى إلقاء السلام .. فحرمانهم منه معصية .. ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ..

وما يزال فى جعبة السائل سهام من المجاملة يكيد بها الشيطان كيدا .. ويتفادى بها غضب أبيه :

الإفساح للأعمام القادمين .. فى المجالس .. مثلا ..

الحديث عنهم .. ثناء عليهم .. وتنويها بهم .. وفى غيابهم ..

محاولة الوقوف إلى جوارهم فى الصف أثناء الصلاة ..

مجاملة أبناء الأعمام فى أفراحهم ولو عبر الطريق .. وإنها لتاركة آثارها هناك حتما من حيث كانت تكريما للأعمام عن طريق أعزائهم .. من أبناء عمومتك.

يصاحب ذلك كله : مناشدة خواص الوالد من أصدقائه .. وأصدقاء الأعمام كذلك .. حتى يتدخلوا للتخفيف من حدة التوتر .. وتمكين أبناء الأعمام من الطرفين ألا يتحملوا وزرا لم يرتكبوه .. حتى يتوقف مسلسل الكراهية .. ويبرأ الجيل الجديد من آصار كراهية يراد لها أن تدوم.

ويبقى مفتاح الموقف فى يد الوالد الغاضب الذى نناقشه الحساب قائلين : لن يقف إخوتك مكتوفى الأيدى إزاء تصرفك .. وسوف يتخذون قرارات من نفس النوع مع أولادهم إزاءك .. وعندئذ .. سوف يتسع الخرق على الراقع .. وسوف تستباح حرماتكم من جيرانكم :

وإذا أنت لم تعرف لنفسك حقها .·. هوانا بها كانت على الناس أهونا

ثم .. ليس من المروءة أن يفشل الوالد فى علاقاته .. ثم يكلف أبناءه أن يدفعوا الثمن ؟ ويدفعوه غاليا !

وماذا يكون موقفك إذا تسلح الأعمام بالمروءة . فأطاعوا الله تعالى فيمن عصاه فيهم ..

أعنى : طلبوا من أبنائهم أن يجاملوكم .. فيحرجوكم بهذا الرد النبيل ..

ويبقى بعد ذلك أمر هام أعرفه عن قرب :

فوالذى نفسى بيده إن هناك لأعماما قد يختلفون .. لكن يبقى حبهم لأولاد إخوانهم حقيقة تملأ القلب .. وحتى - كما يقول أهلنا فى الريف - ليحبون التراب الذى يمشون عليه .. وينفطر قلب العم أسفا أمام أوامر صارمة بإقصاء الأولاء عن عمهم .. عن ذكرياتهم .. عن طاقة من الحنان تدور حولهم .. مشتاقة إليهم ..

وربما شممت رائحة الشواء تفوح من قلبك المحترق .. ولكن الغافلين لا يشعرون ..

ويبقى أن تبحث عن الأحفاد تصب فى قلوبهم شحنة الأشواق .. عزاء وسلوى..

وإنه ليغنينا عن ذلك كله أن يأخذ أبوك يا ولدى بأيديكم الآن .. ليغيظ الشيطان .. المختبئ هناك خلف الستار يوسوس إليكم ..

وحرام أن ينتصر الشيطان .. ويرسب أهل الإيمان !!

ما رأى الدين فى المال الذى تدفعه ثمنا لوظيفة نحصل عليها ؟

يكفل الإسلام للمسلم حياة كريمة .. حين يجعل حقوقه الأساسية هى : سكن يأويه وزوجة يسكن إليها وخادما . ودابة تحمله ..

ولكى يتم ذلك .. فلابد من عمل موافق لاستعداداته .. يغطى نفقات هذه الحاجات الأساسية .

فإذا ضاقت موارد الدولة عن الوفاء بوظيفة لكل مواطن .. فقد حان الوقت ليشمر كل إنسان عن ذراع .. ويكشف عن ساق بحثا عن هذه الوظيفة فإن وجدها .. فبها ..

وإن لم يجدها تلفت حوله باحثا عمن يقف إلى جانبه بماله من جاه أو سلطان.

والأصل أن يتطوع صاحب الجاه لينقذ أخاه المسلم . محققا أمله .. وأحيانا تكون العين بصيره .. ولكن اليد قصيرة .. فلا تطول الوظيفة يد صاحب الجاه إلا بنفقات يفرضها التنقل .. والمجاملات .. مجاملات من يملك القرار .. فى حدود المسموح به طبعا ..

وعندئذ فلا بأس على طالب الوظيفة أن يدفع نظير هذه النفقات الضرورية .. ولا ضير على المعين أن يتقبلها .. فليس من المعقول أن يسعى متقلبا فى البلاد .. ثم مع هذا يدفع من جيبه . وإن كان فينا أصحاب مروءات .. يتعبون .. ثم لا يطلبون أجرا إلى هنا والأمر عادى..

أما غير العادى فهو : أن يتحول الأمر إلى سوق رائجة .. يحدد فيها المبلغ المعين .. للوظيفة المعينة .. ثم يسرى المال نهرا بين يدى عاطلين بالوراثة يتحكمون فى أرزاق الناس .. بلا عمل يؤدونه .. هذا المال الذى قد يكون ثمنا لأثاث البيت الضرورى .. يبيعه المحاويج .. ثمنا للحلم الذى يداعب خيالهم .. والظالمون لا يشعرون .. لا يشعرون أنها رشوة .. وأنها لذلك حرام .. حرام ؟

ولكن على من تقع الحرمة ؟

قال ابن عقيل :

(الرشوة حرام .. وهى ضربان :

رشوة لتميل الحاكم إلى أحدهما بغير حق .. فهذه حرام : على الآخذ والمعطى. وهما آثمان.

ورشوة يعطاها ليحكم بالحق . واستيفاء حق المعطى من دين ونحوه . فهى حرام على الحكم دون المعطى)

إن هذا الرائش - أو الوسيط ومن وراءه - يجعل من المبالغ مقياس التفاضل .. أما المبادئ .. فلا وجود لها فى دنيا المساومات.

ويترتب على هذا : تقدم الخامل .. وتأخر العاقل ..

ويعنى ذلك حرمان الأمة من مواهب كان يمكن أن تفيد الأمة .. وبالتالى يحدث خلل فى دولاب العمل ينعكس على النتاج كما وكيفا .. ثم يرتد إلى الوجدان ليشتعل كراهية .. ثم تدميرا يبدد مرافق الأمة.

إن مصلحة الوطن الكبرى .. لابد أن تكون لها الأولوية بدل أن تتقدم الأهواء لتحقيق مآرب على حساب هذه المصلحة العامة .. ولتكن الكلمة الأخيرة للمواهب النفسية والجسمية التى ترشح كل راغب فى الوظيفة إلى ما يحسنه من عمل.

ونحن فى غنى عن الحديث الطويل عن البركة المنزوعة من هذا المال الحرام يدخل جيوبا هى الغرابيل التى لا تمسك الماء ..

وسوف يذهب هذا المال الحرام بددا ..

إن لم يكن اليوم .. فغدا

أبى طلق أمى .. ثم يمنعنى من زيارتها

إذا كانوا يقولون : آخر الدواء الكى .. فإنا نقول : وآخر الدواء الطلاق .. إذا لم يكن بد من هذا الطلاق ..

وقد يكون الطلاق حلا للمشكلة المزمنة بين زوجين .. فشلت كل محاولات التوفيق بينهما ..

لكن الرواية عندئذ لم تتم فصولا :

لأن مشكلة الطلاق الحقيقية .. تبدأ بعد وقوعه :

فقد يكون هناك أولاد ذكور .. وهنا تكون الخسارة الكبرى .. وقد تنجلى المعركة بين الزوجين عن إناث زغب الحواصل .. وهذا هو الخسران المبين.

وسؤال اليوم يشير إلى مرارة هذه المضاعفات :

فالزوج القديم هنا يرغى ويزبد محتميا برجولته .. مانعا ولده من حقه الطبيعى فى رؤية والدته ..

أى أنه لا يرحم .. ولا يريد لرحمة ربنا أن تنزل !

وعلى الطرف الآخر تحس الأم المطلقة بهمومها الثقال :

إنها بحكم غريزة الاجتماع .. محرومة من نصفها الآخر .. ثم هى تحرم اليوم .. وفى معركة متعددة الجبهات تحرم من حقها بحكم غريزة الأمومة ..

بالإضافة إلى ما يعصر قلبها عندما ترى وليدها .. حائرا بين عقله .. وقلبه :

عقله الذى يفرض عليه طاعة والده

وقلبه الذى يدفعه ليجلس ساعة مع أمه .. يتمرغ فى تراب جنة .. هى من تحت أقدام الأمهات !

ولو كان هما واحدا لاحتملته ... ولكنه هم .. وثان .. وثالث

وإذا كان الإسلام قد أعطى الرجل حق الطلاق .. فقد فرض عليه واجب صلة الرحم .. وإذا فغير مقبول أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ..

أفهم مثلا أن يمنع الوالد ولده من الإقامة الدائمة عند أمه .. ليبقى فى كنف أبيه يأخذ من رجولته ..

أما منعه من مجرد الزيارة .. فإنه إن لم يحكم به الدين .. لفرضته المروءة .. وكيف لا يزور الولد أمه .. المريضة .. ليحملها إلى الطبيب .. مثلا .. أو يعفيها من قضاء حاجات لها تعرضها للهوان والابتذال ..

إن هذا المنع لن يسكت فيه أشواق لقائه بأمه .. وسوف يتحايل .. سوف يكذب .. كذبا حمله أبوه عليه حملا حين كلفه بما لا يستطاع ..

إن الابن كمسلم مأمور بالاهتمام بكل المسلمين .. فكيف لا يهتم بمن حملته كرها .. ووضعته كرها ..

لقد كان الشيخ محمد رشيد رضا إذا صحا من نومه مكتئب النفس قالت له أمه:

يا محمد .. هل حدث اليوم شئ لمسلم .. فى الصين ؟

وأقول لك : يا ولدى : لا حق لوالدك فى منعك من الزيارة .. واستعن بأولاد الحلال ليخففوا من حدة توتر الوالد .. حتى لا تستعديه عليك ..

وعلى كل حال .. وفى كل الظروف .. زر أمك .. غبا .. وعلى فترات .. فى محاولة تفر بها من غضبته المضرية .. ولا تخف من مخلوق ..

فقلب من تخافه .. بيد من ترجوه !!

هل أؤدى فريضة الحج أم أزوج ابنى ؟

إنه لشئ جميل حقا أن يملك المسلم المال .. ثم لا تكون مشكلة : هل ينفقه فى حلال يبقى .. أم فى حرام يفنى ؟

لكنها بالدرجة الأولى فى أى وجوه الحلال يصرفه .. فقد حسم القضية ابتداء .. فماله الذى حصله بعرق جبينه لا ينبغى أن ينقص من دينه .. لقد جمعه من حلال .. وطبعى أن تتم النعمة بإنفاقه أيضا فى الحلال .. وذلك هو موقف السائل الكريم الحائر بين أداء فريضة الحج .. وبين تزويج ولده.

وربما كان لإجابة الشيخ الإمام ما يسوغها .. فلا تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت .. لكننى أعتقد أن القضية بحاجة إلى شئ من التفصيل : يعين به السائل على أن يتخذ قراره فى ضوء واقع ابنه الذى يراه هو .. ولا أراه لا أنا .. ولا الشيخ الإمام :

فقد يكون الابن تحت العشرين .. أو فوق الثلاثين .. وقد تحوم حوله شبهات أو لا تحوم ..

ثم هو منسوب إلى جليس صالح .. أم جليس سوء ..

ثم نوع البيئة التى يعيش فيها بصفة عامة : نظيفة عفيفة .. أم لا ..

فإذا طعن الابن فى السن .. أو خيف عليه الانحراف .. فالأولى تزويجه ..

وإذا كان الحج دين الله .. فهو أحق أن يقضى .. فإن سد الذرائع أيضا دين الله فى عنق الوالد .. ومن واجبه أن يسد بابا من الفتنة .. لا ينجو الوالد ولا الأسرة من مضاعفاتها ..

وأنا أميل إلى تزويج الابن أولا .. لماذا ؟

لقد لاحظت لهجة الرسول ﷺ الشديدة .. بل العنيفة لما خاطب القادر على

الزواج ثم لم يتزوج قائلا :

أنت من إخوان الشياطين ..

هذا الخطاب الذى لم يواجه به أعتى أعداء الدعوة .. إيمانا منه ﷺ بما لغريزة الجنس من رغبة فى الإشباع .. ثم ما عرف من سنته ﷺ من لعن الزوجة التى تبيت وزوجها غير راض عنها - بحق طبعا - لماذا ؟

لأن الموقف قد يحمله - وخاصة فى مثل هذا الزمان - على التورط فى حرام ما كان أغناه عنه ..

أضف إلى ذلك أن الفتى يسير اليوم فى الطرقات فلا يرى خالدا .. ولا عمرا .. ولا بلالا رضى الله عنهم ..

كما أنه لا يرى العفيفات من الصحابيات الجليلات .. ولكنه يرى الكاسيات العاريات .. ثم عبدة الشيطان .. وما أدراك ما عبدة الشيطان ..

الأمر الذى يشكل عبئا على كاهل شاب يراد له أن يلقى فى الماء شريطة ألا يصيبه بلل !!

فلتبدأ .. بتزويج الولد .. منقذا له من هذه الضغوط الثقيلة .. حتى يريح .. ويستريح :

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

لسان زوجتى سليط .. فماذا أفعل معها ؟

الإنسان : هو الكائن الوحيد الذى يضحك .. ويبكى !

لأنه الكائن الوحيد الذى يرى الأشياء كماهى كائنة .. وكما ينبغى أن تكون : يرى الزوجة كماهى فى الواقع .. وكما يحلم أن تكون ..

ومن هذه الأشياء التى يراها :

مشهد الزوجة المشاكسة .. التى لم تستوعب معه هموم العمل .. وهموم البيت ..

وبينما جارتها «الفلاحة» الأمية.. تستقبل زوجها لدى الباب فى حفاوة .. إذا بالزوجة الفيلسوفة .. إذا بعقلها من وراء لسانها :

عقلها .. الذى لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا .. وإنما هو سائب .. فى فمها .. يضرب بين شدقيها يمنة ويسرة ..

وهكذا قد تذهب الزوجة الأمية بنصيب الأسد من السعادة .. بينما المثقفة .. وقد بقى لسانها غير مثقف .. غير مهذب .. فى بيئة كل ما فيها يشى بالقرار ..

ثم يكون أمره معها على ما يقول الشاعر :

أترضى أن تكون رفيق قوم

لهم زاد .. وأنت بغير زاد ؟!

ونستعير هنا كلمات للمرحوم الرافعى :

(لو عرفت - الزوجة - الحق .. لما عرفت كيف تنطق بكلمة تسيئ ..

ولو عرفت كيف تحب زوجها .. لما عرفت كيف تسكت عن كلمة تسر ..

ولن تكون الزوجة زوجة .. إلا إذا عرفت لك الحق .. وعرفت لك الحب !

وياله من جفاء .. يكون نكرانا للجميل ..

وما ألأم الشجرة التى لو نطقت لشتمت ساقيها !..

والنتيجة المتوقعة هنا :

انقلاب الحب إلى كراهية .. وعندئذ فليس للكراهية حدود !

ولكن الإسلام بقيمه .. يهيب بالمؤمن وبالمؤمنة ألا يحيف أحدهما على من يبغض ..

ولا يأثم فيمن يحب ..

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)

وبعد :

فتعجب من زوجة :

أمينة على مال زوجها .. وعلى عرضه .. وتملك من الإرادة ما تمسك به زمام نفسها الأمارة .. لكنها ضعيفة أمام هذا العضو الصغير . اللسان .. والذى يعبث بحاضرها ومستقبلها .. ثم لا تستطيع أن تضبطه !

إن طاعة الزوج .. ليست نوعا من الحلى .. تستدعى من الصندوق .. لتتزين بها ثم تخلعها بعد حين .. ولكنها طبيعة .. تبذلها .. ودائما .. وبلا تكلف !

فهل نحن فاعلات ؟

للخطاب القرآنى خصائصه التى نريد بيان مجملها !

يتميز خطاب القرآن بأنه ليس معقدا .. فيرهق عقلك .. ولا عنيفا .. فيتعب قلبك .. ولا مسهبا .. فيستدعى مللك .. ولكنه : واضح .. خفيف الواقع .. ولا ينتزعك من واقعك بل يعيش همومك .. ثم يساعدك على الارتفاع .. جاعلا حتى من الضمير خطابا وغيبة معبرا عن هذا الواقع أصدق تعبير ..

فقد يكون أسلوب المخاطبة نوع تقدير للمخاطب .. الذى تستحضره بين يديك .. ثم توجه إليه الحديث .. لما يدل ذلك على أن له « حضورا » يثبت وجوده على الساحة ..

بقدر ما يكون الحديث عنه بضمير الغيبة نوع إهمال .. واسقاط لوجوده .. كأنه - وهو الحاضر بين يديك - غائب لا تراه ..

تأمل قوله تعالى فى سورة البقرة - ٢٣٦ - وهو موضوع السؤال :

﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة .. ﴾

ثم قوله تعالى فى نفس السورة - ٢٣١ - :

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف.. ﴾

ثم تأمل قوله تعالى فى نفس السورة ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا .. ﴾ ٢٣٠.

فالعزم على الطلاق .. أو إيقاعه فعلا كما تشير الآيتان الأوليان هنا - إذا كان طلاقا رجعيا - يشير إلى توفر فرص التفاهم .. وإمكان عودة المياه إلى مجاريها. وأن الأمل ما زال . وإذن فمن وسائل التأثير وإيقاظ الضمير أن يظل الزوج بين أيدينا نخاطبه .. أو نعاتبه .. فلعل وعسى .. لعله أن يفيق قبل أن يصير هو ذلك الغريق .

أما هذا الذى يوشك أن يطلق - فى الآية ٢٣٠ - الطلقة الثالثة ليهدم البيت كله .. فهو غائب .. لا اعتبار له .. ومن ثم عبر عنه بضمير الغائب (فإن طلقها).

ولعلنا نستأنس لذلك بقوله تعالى مخاطبا النفس المطمئنة بالذات (كما أشار المفسرون) : يا أيتها النفس المطمئنة .. تقديرا لها .. بل واعترافا بحقها فى الكرامة ..

لكن سياق الحديث عن النفس «اللوامة» والنفس الأمارة يجئ بضمير الغائب التى يتحدث عنهما .. لا إليهما كما فى المطمئنة.

﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾

﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾

ونلاحظ أن الآية ٢٣٦ تؤثر حرف الشرط «إن» فى ﴿ إن طلقتم النساء مالم تمسوهن .. ﴾

لأن حرف الشك «إن» كأنه يشكك من أراد الطلاق قبل أن يمس حتى لا يتخذ قرار الطلاق . فربما كان متسرعا . لأنه لم يجرب . ولم يعاشر .. وقد يكون حكمه قاصرا .. فلعله أن يراجع نفسه قبل أن يهدم العش الذى لم يستمتع به .

أما إيثار «إذا » فى قوله تعالى ﴿ إذا طلقتم .. ﴾ ٢٣١ فهو الطلاق بعد المعاشرة . وربما كانت هناك تجارب مره جعلت من الطلاق آخر الدواء .. فكان المقام مقتضيا «إذا» التى تفيد تحقق الوقوع..

وسبحان من هذا كلامه ..

هل يصح شرعا أن نصف فيلسوفا غير مسلم بأنه : العظيم ؟

إذا قال المتحدث «فيلسوف الصين» .. فنعم.

أما «العظيم» هكذا .. وبإطلاق .. فلا .

وقد تسألنى : ألم يخاطب النبى ﷺ المقوقس قائلا : «عظيم القبط» ؟

والجواب : بلى ! .. ولكن .. لاحظ أنه ﷺ قيد العظمة بالإضافة إلى القبط .. ولم يطلقها كما أطلقها المتحدث المذكور .

ولقد كان الرسول ﷺ حكيما . عندما جارى الخصم فى مصطلح يؤمن به المدعو .. وكان واقعيا .. لأنه فى قومه كذلك .. ثم كان مع ذلك منصفا عندما حصر العظمة فى نطاقها .

أما عن خطة الفيلسوف الرامية إلى العدل فى معاملة الزوجة .. فنقول : إن الإسلام ارتفع بكرامة المرأة إلى قمة ليس وراءها وراء .. ولم يقتصر على العدل .. بل حض على الإحسان .. وذلك طبق القاعدة القرآنية التى تشجع دائما على الإحسان .. بعد الأمر بالعدل فى مثل قوله تعالى :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها .. ﴾ وهذا هو العدل .

لكنه سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله .. ﴾ وهذا هو الإحسان ..

فإذا كان الزوج -طبق هذه الآية الكريمة - مأمورا بالعفو .. بل بالصفح .. بل بالغفران ونسيان ما كان .. إذا كان مأمورا بذلك فى علاقاته الخارجية فكم يكون حظ الزوجة .. والخلاف معها داخلى .. كم يكون حظها من الإحسان .. وإذن فالحكمة عندنا هى :

قابل الرحمة .. بالرحمة ..

وقابل القسوة .. بالإحسان .. لا بالعدل وحده

ولقد تمثل رجال من أمتنا هذه الروح الكريمة .. فكانوا أصدق تعبير عنها ومنهم ذلك العالم الذى عوتب على مسامحته زوجته رغم سوء خلقها . فقال : أنا رجل : قد أكمل الله على النعمة فى بدنى . ومعرفتى . فلعلها بعثت عقوبة على ذنب اقترفته .. فأخاف إن فارقتها أن تنزل بى عقوبة أشد منها !

ولقد كان للزوجة من الرأى العام المسلم حارس يدافع عنها فى مثل قول العالم لمن كان يضرب زوجته : أكثر من ضربك . أو أقلل .. فإنما تضرب نفسك !!

هل يجوز للداعية أن يقسو فى منطقه مع المدعو أحيانا ؟

فى الجولة الأولى من العلاج .. قد يلجأ الطبيب إلى المسكنات .. مهونا بادئ الأمر من خطورة العلة فرارا بالمريض من آثار الصدمة ..

حتى إذا وافت ساعة الصفر .. لا يتردد فى مصارحة المريض .. بخطورة علته .. وأنه لا مفر من عملية جراحية ؟!

وقد يلجأ الداعية إلى إجراء من هذا القبيل استثناء من قاعدة الرفق والحكمة: فعلى رغم أن الداعية مأمور بالرفق بالمدعو .. لكنه أحيانا .. مضطر أن يقسو .. فآخر الدواء الكى :

ومن هؤلاء الدعاة : ابن سيرين :

سئل عن مسألة معقدة فقال للسائل :

امسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس !

وذات يوم سأل رجل« عمرو بن قيس» عن الحصاة يجدها الإنسان فى خفه أو فى جبهته .. من حصى المسجد !

فقال له : إرم بها.

قال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد »

فقال : دعها تصيح حتى ينشق حلقها .. فقال الرجل : سبحان الله أولها حلق؟! قال له : فمن أين تصيح ؟!

ولقد كان الإمام مالك قاسيا ذات يوم .. حين سأله رجل : كيف الاستواء على العرش ؟ فقال له :

الاستواء معقول . والكيف مجهول . والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا رجل سوء !!

على أن يكون معلوما إن مثل هذه الردود إنما هى دواء :

فهى إذن فى الوقت المناسب .. وبالقدر المناسب ..

صادرة لا عن إرادة التشفى .. وإنما هدفها الإصلاح ..

حتى إذا أثمر الدرس ثمرته .. فى مرحلة ما .. عاد الداعية إلى قاعدته سالما.. قاعدة الرفق واللين .. عسى الله أن يشفى به صدور قوم مؤمنين..

مدى مسئولية الداعية عن استيعاب الدراسات الكونية ليوظفها لخدمة الدعوة

لأن غير المسلم لا يؤمن بالقرآن الكريم ولا بالسنه المطهرة ..

فقد صارت الإشارات الكونية القرآنية لغة العصر فى مخاطبة غير المسلمين لأنها تلزمهم بها كلمة التقوى ..

وقد حققت هذه الوسيلة ثمراتها فعلا .. فقد دخل بسببها فى دين الله أفواج وأفواج.

بل إنه كلما تقدم الغرب فى أبحاثة الكونية .. كلما توفرت فرص النجاح فى دعوتهم إلى الله تعالى .. **وعلى سبيل المثال :**

إذا أثبت الباحث الأجنبى أن الحيض أذى .. كانت فرصة الداعية الذى يلفت نظره إلى سبق القرآن إلى تقرير هذه الحقيقة ينتهى بإسلام الباحث ..أو إسكاته على الأقل .

على أن هناك أكثر من **نقطة نظام** ينبغى أن يعيها الدعاة هنا ضبطا للخطى :

أولا : القوانين الكونية التى يتغنى بها الأجانب . الصحيح أن يقال : إنهم اكتشفوها .. ولم يحدثوها .

أعنى : أنهم ما أوجدوا مفقودا .. وإنما أظهروا موجودا.

ثانيا : القانون المكتشف إنما هو من عند الله تعالى فهو دليل عليه سبحانه .

وسبحان من لم يترك السنن تدبر الكون نيابة عنه .. كما زعم البعض .

ثالثا : القرآن الكريم لا يناقض اليقينى من العلم .. لأن كلا من عند الله .. بخلاف النظريات التى لم تصل بعد إلى درجة السنة .. فلا نربطه بها .

رابعا : الأصح أن يقال : سنن الله فى الكون .. بدل قوانين الكون .

أ- لأن لفظ « قانون » فيه ظلال من البشرية الخاضعة للتغيير والتبديل . أما السنة ففيها معنى الثبات .

ب - ثم إن « سنة » كلمة قرآنية فهى أحق بالاختيار .

أمـا عن **مدى إمكان الإفادة من الأدلة الكونية** فإن القرآن يعلمنا أن نتخذها إلى إحقاق الحق سبيلا..

ويلاحظ ذلك فى سورة البقرة كيف كانت مشاهد الكون دليلا على التوحيد : فبعد قوله تعالى :

﴿ وإلهكم إله واحد﴾ يجئ قوله تعالى مباشرة :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .. ﴾ الآية

وفى سورة الفرقان وبعد قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ﴾ يجئ قوله تعالى ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا .. ﴾ الآية .

وسبحان من هذا كلامه .

هل يتغير القضاء بالدعاء ؟

أراد الله تعالى مناأشياء .. وأراد بناأشياء..

ومسئوليتنا أن نشغل أنفسنا بما هو مطلوب منا .. فذلك دورنا ..

أما ما أراده تعالى بنا .. أولنا .. فهو إليه وحده ..

وقد كان من دعاء أعرابية لشاب أحسن إليها:

[فرغك الله لما أمرك به .. ولا شغلك بما تكفل هو لك به ..]

وإذن .. فعلينا أن نأخذ بالأسباب .. فى مواجهة الصعاب .. فإن تحققت آمالنا .. فبها ..

وإلا .. فالقضية فى يد الله تعالى كيف يشاء .. ولا قصور لدينا .. إلا إذا بقيت فى الجسم طاقة لم نسخرها وكان فى النفس بقية من الحيلة لم نستخدمها .. وعطلناها فى الطريق ..

وسواء تحققت الأمانى .. أم فرت من بين أيدينا . فالأمر فى الحالين بقضاء الله تعالى وقدره .

وعلى أن أسعى وليس على إدراك المطالب ..

ثم الشكر .. فى حال الوجدان ، والصبر عند الفقدان

وطبعى أن يجأر المبتلى إلى الله تعالى بالدعاء وقت الشدة ..

والمشكلة هنا ليست فى إجابة الدعاء .. فهى مضمونة بنص القرآن الكريم .

لكنها بالدرجة الأولى عند الداعى نفسه ..

هل دعا حقا دعاءً مستوفيا شروطه ؟

أم هى حركة اللسان والقلب غافل .. يفتقد الثقة بوعد الله تعالى فلا جدوى منه ..

فإن كانت الأولى .. فقد استجيب له استجابة لا تكون على مزاجه ..

وبالتحديد كما طلبها .. ولكنها إلى مشيئته تعالى الذى يقبلها على النحو الذى يراه تعالى محققا مصلحة الداعى ..

وهو أولى بنا منا .

ويعنى ذلك أن التغير حاصل بالدعاء ، ولكنك لا تدرى ..

فإذا كانت الإستجابة على ما تهوى . أو كانت الأخرى .. فأنت مكلف بالدعاء دائما .. وعلى أى حال .. تذللا .. وتضرعا .. وأنا بالقوى الذى تستشعر من قوته وعظمته ما يعينك على تخطى عقبات الطريق .. واصلا إلى ما تريد بإذن الفعال لما يريد .

إلى أى حد يكون الإنسان مسئولا عن مشاعره وعواطفه ؟

تساءل العلماء عن المشاعر والعواطف :

هل تقع تحت الأمر والنهى .. أم لا ؟

قال العلماء

لا تقع .. و لا يتعلق بها أمر ولانهى .

وإنما يتجه الأمر والنهى إلى : سوابقها .. أو لواحقها :

أ- فإن كانت المشاعر جبلة .. فالطلب على ما نشأ عنها .

ب - وإن كانت وليدة مثير داخل فى قدرة الإنسان فالطلب متجه إلى المثير:

مثال :

تهادوا ... تحابوا ..

أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه

« أى التفكر فى النعم »

وكالنهى عن النظرة المثيرة للشهوة.

فالمثير هو التهادى وهو ممكن .. وإذن فالأمر متجه اليه .

وكذلك الامتناع عن النظر شهوة ... وهو ممكن

فالنهى متجه إليه .

« والتفكر ممكن »

وإن لم يكن المثير ممكنا مثل : لا تغضب ..

فالنهى .. لا عن الغضب .. وإنما عما يترتب عليه وهو الانتقام .

وكقوله تعالى :

﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة ﴾

فالرأفة تهجم . ولا قدرة للإنسان على رفعها .. عند وجود أسبابها .

فالنهى إذن عن ثمرتها وهو .. تخفيف الحد.

وكقوله تعالى :

﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن ﴾

وتجنب الظن غير ممكن .

وإذن فالنهى عن مضاعفاته وهو :

ألا تحقق .. فلا تحدث عما تظن بغير دليل .

فالنهى ليس عن المشاعر .. وإنما عما يثيرها .

ويعبر عنها . ويشبعها .

نرجو نبذه مختصرة عن ماء زمزم ؟

عن جابر رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[ماء زمزم لما شرب له] (١)

وزاد الحاكم فى المستدرك . من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا :

فإن شربته تستشفى به . سقاك الله .

وإن شربته مستعيذا به . أعاذك الله .

وإن شربته ليقطع ظمأك . قطعه الله . (٢)

وقد استقبل الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان .. استقبلوا هذه الأحاديث بكل مداركهم .. من الرائد الذى لا يكذب أهله صلى الله عليه وسلم .. مدركين خصوبة ماء زمزم ومافيه من بركات .

تنعكس على الجسم صحة .. وغذاء .. ودواء.

ثم على الروح صفاء . ونقاء..

وعلى مستقبل الإنسان ضياء كاشفا .. يصل به إلى ما يريد من كل صور الخير التى يتشوف اليها المسلم ..

من أجل ذلك حرص الأبرار على أن يدعوا ربهم عند شربه ..

ذاكرين خصوبة البركة فيما يشربون .. الأمر الذى فرض عليهم استحضار آمال كثيرة يرجونها .. لهم .. ولأهليهم .. فيدعون الله أن يحققها ..

فما دام ماء زمزم لما شرب له .. محققا ما نويته أثناء شربه ..فلم لا ننتهز هذه الفرصة التى قد لاتتكرر ..

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والبيهقى [صحيح الجامع الصغير « ٥٥٠٢ »] .

(٢) المستدرك للحاكم ح١ /٤٧٣ س.

لنحشد كل آمالنا فى وعينا .. فلعل رحمة الله تعالى أن تكون قريبا من المحسنين الشاربين ؟

وفى مقدمة هؤلاء المحسنين **عمر** رضى الله عنه .. الذى كان يدخر بركة ماء زمزم ..ليوم القيامة رصيدا مذخورا له ... وذلك قوله :

[اللهم إنى أشربه لظمأ يوم القيامة]

ويحدد **ابن عباس** رضى الله عنهما آماله في هذه الدعاء ، ساعة شربه :

[اللهم إنى أسالك علما نافعا . ورزقا واسعا . وشفاء من كل داء }

وقد أثبتت التجارب احتواء ماء زمزم على عناصر لابد منها لصحة الإنسان من معادن .. عناصر فعّالة .. ومفيدة فائدة أكدتها التجاريب .. فيما روى عن ابن القيم منوها بفضل ماء زمزم .

قال : [وقد جربت أنا وغيرى من الاستشفاء بماء زمزم أمورا عجيبة .

واستشفيت به من عدة أمراض .. فبرئت بإذن الله .

وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد . قريبا من نصف الشهر .. وأكثر ..لا يجد جوعا .. ويطوف مع الناس كأحدهم]. [١]

ويحب أن نعلم .. أن تلك القواعد حقيقة فوق الشك والجدل ..

ويبقى أن يكون الشاربون على مستوى هذه النعمة السابقة ..

فيدعون ربهم خوفا وطمعا .. رغبا ورهبا .. صادرين عن قلب سليم .. يصل بهم فى النهاية إلى هذا الفوز العظيم .

---

(١) الطب النبوى لابن القيم .

يقول تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون نرجو التعليق على الآية الكريمة بما يشفى الغليل ؟

إنما سميت سورة الشعراء بهذا الاسم لماذكر فيها من قوله تعالى :

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾

وهى الآية الرابعة والعشرون بعد المائتين .. وهى والآيات بعدها إلى آخر السورة مدنية فى سورة كلها مكية .. إلا هذه الآيات .. والآية السابعة والتسعون بعد المائة ..

وتعجب .. ولن ينقضى عجبك من سورة تنزل بمكة .. ثم ينتقل بها صلى الله عليه وسلم إلي المدينة . وليس فيها هذه الآيات المدنية .. حتى إذا نزلت هناك بالمدينة وضعت فى مكانها .. لتجد نفسك أمام صورة من صور الإعجاز القرآنى ..

حين تقرأ الآيات السابقة واللاحقة فلا ترى إلا الانسجام .. والالتحام .

أما الشعراء : فهم - كما قال جمهور من المفسرين - شعراء الكفار من أمثال « أبو عزة الجمحى . وأمية بن أبى الصلت ».

كانوا يهجون المسلمين .. مركزين على القيادة المؤمنة ..

وكان الناس يلتفون حولهم معجبين بهم ناقلين أشعارهم يجارونهم فى مسالكهم .. والمرء على دين خليله .

والآية الكريم تندد بهم .. جاعلة من فسقهم حقيقة مؤكدة مرئية بالعين المجردة وذلك قوله تعالى ﴿ ألم تر .. ﴾

وما هو ذلك المرئى والذى كان سببا فى ذمهم :

إنهم يهيمون .. كالإبل العطاش ...

يهيمون .. يتخبطون فى الطرقات .. لا يقصدون مكانا معينا ..

إنهم فى قبضة انفعالات جامحة كأنها الإعصار .. وهم القشة التائهة .. لا تستقر على حال ..

ومن تخبطهم وتناقضهم :أنهم يمدحون وجه النهار .. ويكفرون آخره

يمدحون الجود .. ولا يجودون ..

ويذمون البخل .. وهم الباخلون .. التائهون فى أودية الخيال أو الخبال .. بلاهدف إلا تمزيق الأعراض .

إنما هى : ألسنة سائبة .. بل سائمة وظيفتها تلويث سمعة الشرفاء .

يضاف إلى ذلك أنهم منافقون :

يقولون مالا يفعلون ..

بل يتباهون بفعل باطل لم يباشروه .. قذفا للمحصنات وادعاءَ صحبتهن زوراً وبهتانا .

وإذا كان الشعر كأى كلام .فحسنه حسن . . وقبيحه قبيح ..

وإذا وصمت الآيات شعراء الفتنه بالقبح .. فإنها لم تخاصم الشعر وتعزله عن منصة التوجيه ..

ويقى للشعر الأصيل النبيل مكانه فى موقع الدفاع عن الفضيلة :

وذلك قوله تعالى :

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾

وهم الشعراء الملتزمون من أمثال حسان رضى الله عنه :

الذين يهجون من هجاهم .. دفاعا عن الإسلام . وتزييفا للباطل ..

وإذن .. فلا خصومة بين الإسلام وبين الشعر .. وإنما الخصومة مع الذين يعكرون نبعه الرائق برذائلهم .. وإلا فقد قال صلى الله عليه وسلم :

[.. وإن من الشعر لحكمة] وكان أبو بكر يقول الشعر .. وكذلك عمر وعثمان .. وكان على رضى اللهم عنهم جميعا : كان أشعر الثلاثة .

صورة يمين طلاق

فيما يتعلق بالحلف بالطلاق فى مثل هذه الصورة .. فإن الأمر إلي الحالف ابتداء : فإن كان يقصد الطلاق .. فقد وقع الطلاق .. طلقة واحدة رجعية إن كانت الأولى .. أو الثانية .

وإن كان يقصد إلزام نفسه الوفاء برعاية أمه جبرا لخاطرها مثلا دون أن ينوى الطلاق .. فهوعندئذ يمين ..

وحينئذ فإن الأمر كما قرر الشارع الحكيم :

[من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه و ليفعل الذى هو خير] (١) .

والكفاره هنا :

إطعام عشرة مساكين من جنس ما يأكل الحالف .. أو تحرير رقبة أو صوم ثلاثة أيام .. متتابعات أو متفرقات ..

وهكذا هو **حكم** الإسلام .. ولكن أين **حكمته** فى مثل هذا المقام والتى بها نلزم الحالف كلمة التقوى ؟

واضح من القضية وفاة الوالد .. وإذن فالواجب أن تكون الأم فى قلوب أبنائها بعد أن غاب الرفيق .. والذى تعاونت معه على تربيتكم .. ومن غير المعقول أن يكون شكر النعمة إحراجها أو إخراجها بوضعها فى هذا الموقف الضعيف ..

وكان المتوقع أن تكون هى سيدة البيت .. وإذا كان ولابد من خروج من البيت.. فليخرج الابن .. وهو الفرع ويبقى الأصل !!

وقد كان على الابن الأكبر .. وهو يمثل الوالد بعد غيابه أن يتدخل .. ويحسم قضية الخلاف بين أمه وأخيه .. لتبقى كما هى .. فى المكان الذى استقرت فيه .. بدل هذا الانفعال الذى يذهب بأحلام الرجال .. والذى يطلق ألسنة الناس بأقوال .. لا ينجو منها أحد من أفراد الأسرة .

---

(١) رواه مسلم .

ذلك بأن المعارك .. معارك الإخوه .. لا غالب فيها ولا مغلوب وإنما تنتهى حتما بهزيمة الفريقين . والأمر على ما يقول المجربون :

فإذا رميت أصابنى سهمى

ولئن كان للأم من الحقوق مابه تظل دائما مرفوعة الرأس . موفورة الكرامة .. فإن عليها فى نفس الوقت أن تكون شاهد العدل الضابط لدولاب الحياة أن يسير بانتظام .. ليبقى الأبناء وفى ظلها أصفياء أوفياء.

وإذا قررت العودة إلى العش القديم مع ولدها الأصغر فإنها تسول - بدون قصد طبعا - للمغرضين أن يتقولوا بعض الأقاويل مما يثير الغبار ولا يؤمن معه العثار.

وإذا فعليها أن تداوى الجراح بما يحفظ لولديها معا ودهما ... معلنة : أن الخروج .. والعودة .. لم يكن لمفاضلة بين الاثنين فهما فى حبها سواء..

وذلك بالطريقة التى تراها مناسبة .. و مؤثرة ..

وقاطعة ألسنة المتكلمين .. وقاطعة أيضا على زوجة الصغير أن تتخذ من العودة شهادة لها .. على حساب زوجة الأكبر التى لم يطل بقاء الأم عندها .

هل يجوز للأب أن يخص أحد أبنائه بهبة مالية لأنه لم يتعلم مثل إخوته !

يحرص الإسلام على التسوية بين الناس .. إلى الحد الذى يأمر القاضى أن يسوى بين الخصمين .. حتى فى النظر .

فإذا تعلق الأمر بالعدل بين الإخوة .. فإن أوامر الشرع هنا صارمة بضرورة العدل بين الأبناء .. من حيث كان غياب العدل سبيلا إلى التنازع بين إخوة يعيشون معا .. ومن ثم يكون ضرر تنازعهم مضاعفا .. بالإضافة إلى أنه إذا كان الوالد راغبا فى بر أبنائه به .. فليعنهم على هذا البر .. بتلك التسوية .

هذا هو الأصل فى الإسلام : وهو التسوية بين الأبناء؟

ومن واقعية الإسلام وتقديره لظروف الناس أنا نراه يستثنى من هذه القاعدة حالات .. تقضى الحكمة فيها بشئ من التمييز :

وتأمل من واقعيته :

أن الابن الغائب .. أو المريض .. أو الصغير .. لكل منهم نصيبه الأكبر من الود والعطف .. حتى يعود الغائب .. ويبرأ المريض ، ويكبر الصغير ..

أما عن هذه القضية اليوم .. فيبدو أن الابن الذى لم يتعلم .. يساعد والده فى عمله..

وإذا كان الأمر كذلك .. فلا بأس من تخصيصه بزيادة فى حدود المتعارف عليه نظير ماأنفق على إخوته .. ثم هى بمثابة ما يدخره أى عامل أجير بعد أكله ونفقته .. ليحقق به من بعد مطالب حياته .

فإذا كان هذه الابن معوقا فما أشد حاجته إلى رصيد يشجع الآخرين على كفالته بعد وفاة والديه .

ويبقى العبء الأكبر على كاهل الوالد .. الذى لا يتخذ قرار الزيادة بصورة من التحدى لمشاعر بقية الأبناء .. بل على نحو ودود يقنع به بقيه الورثة بشرعية ما

يفعل إن لم يكن تدينا ..

فإن المروءة تقتضيه ..

وتظل هناك بقية من المسئولية على الأخ المتميز نفسه .. وما يفرضه ذلك من مجاملات من طيب ما تنتج الأرض .. ذاهبا به إلى إخوته المتعلمين .. عائدا فى نفس الوقت بأضعاف ما أعطى وعليه مزيد من الود يذهب مع الأيام ماقد تضمره الصدور من نفوز..

أما قوله صلى الله عليه وسلم :

[أشهد على هذه غيرى لا أشهد على جور]

فإن ذلك حين تتحد ظروف الإخوة .. ولا يكون هناك من عوامل الترجيح والتفضيل مايسوغ الزيادة ..

لأن التفضيل والحالة هذه لون من اتباع الهوى ..

أو الخضوع لزوجة بتمييز أبنائه منها على حساب أبنائه من أخرى ربما كانت شريكة فى كفاحه.

وأنا أعرف آباء عقلاء قادوا السفين بحكمة .. حملت الإخوة أنفسهم على أن يتخذوا قرار تمييز أخ لهم .. وبمحض إرادتهم ..

فكانوا خير خلف .. لخير سلف .

من الجمعية الخيرية الإسلامية بالجزائر العاصمة :

١- ماحكم الإسلام فى الموسيقى وهل يجوز استعمالها فى الأناشيد الإسلامية ؟

٢- ماحكم الموسيقى التصويرية المصحوبة بالمشاهد المصورة ؟

٣- ماحكم الإسلام فى الغناء ؟

نذكر هنا بعض ما قاله العلماء فى هذا المجال ملخصا : قالوا :

المعركة دائرة فى كيان الإنسان بين : جنود الشيطان وهى : الشهوات . وبين حزب الله وهو : نور العقل.

وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان . وغلب عليها .. والواجب إزعاجها بما ينشطها لطرد هذا الغاصب الدخيل ..

فكيف يجوز تكثير أسلحة الغاصب بالسماع وهو سلاح من أسلحتها فمن استولى على قلبه جند الشيطان .. فلا يجوز عليه السماع .. لأنه يستضر به.

وقد يكون الإنسان شابا .. فالسماع حرام عليه إذا كانت الشهوة غالبة عليه .. لأن وصف الوجه مثلا والحديث عن الفراق والوصال مما يثير شهوته ..

وإن كان من العوام .. فإن السماع فى حقه مباح كسائر أنواع اللذات المباحة .. إلا أنه لو اتخذ السماع حرفة له .. فإن السماع ممنوع عليه لتشبثه به ودوامه عليه .. لا أن أصله ممنوع.

أما عن السؤال الأول والثانى :

فلا بأس من سماع الموسيقى مالم تله عن ذكر الله أو عن أداء فريضة .. ولا بأس من استعمالها مع الأناشيد الدينية مصحوبة بمشاهد مهذبة يقبلها الشرع .. وتذكر بقدرة الله تعالى وبديع صنعه ..

وفى فتوى للمرحوم الشيخ طه حبيب ذكر : أن الإمام أحمد رحمه الله سئل عن التلحين فقال للسائل الذى كان اسمه محمد :

أيسرك أن يقال لك : يا مو حامد !!

أما عن الغناء :

فقد ندد ابن القيم في إغاثة اللهفان .. بالغناء .. على مدى أربعين صفحة .. في الوقت الذى رخص فيه ابن حزم على نحو خالفه فيه كثير من الفقهاء .

ونقول :

يجوز الغناء متى كان المعنى شريفا .. والمغنى لا يثير الفتنة .. وإذا نصح رجل بنى أمية قائلا :

(يا بنى أمية : إياكم والغناء : فإنه ينقص الحياء . ويزيد فى الشهوة . ويهدم المروءة .. وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر) .. إذا قيل ذلك .. فالمقصود بالطبع .. هو الغناء المسف .. المرذول .. المهيج للشهوة .. المبتذل فى معانيه ..

أما الغناء من حيث هو : فقد قال عنه أستاذنا د. محمد سعاد جلال :

(الغناء من حيث هو ألفاظ ذات ألحان وأصوات.. لا يحرم لذاته . لأنه مقتضى وظيفة السمع : كالمناظر الجميلة التى هى مقتضى وظيفة النظر.

وكلاهما مقتضى الفطرة . ومقتضيات الفطرة لا تحرم لذاتها.

وبناء على ذلك فالغناء : عفيفه عفيف . وقبيحه قبيح . إذا هيج الغريزة.

فأما إذا خلا من هذه الخبائث . فلا شك عندى أنه مباح :

لأن تلقى الجمال بالسمع .. كتلقى الجمال بالنظر : فطرة بنيت لذاتها على غير التعطيل.

بل جعل كمالها فى تحقيق غاياتها .. فلم يصح على حظره لذاته دليل من الشرع).

صرخ أحد الدعاة فى وجه شاب تاب من ذنوبه
بعد رحلة مع الشيطان طال مداها .. قائلا له : لا توبة لك !!

من بين ما تعيه الذاكرة من كلام العارفين قول أحدهم :

إذا قال الساجد الطائع : رب .. قال له سبحانه :

لبيك .. مرة واحدة ..

ولكن العاصى الساجد التائب إذا قال : رب ..

قال له تعالى : لبيك .. ثلاث مرات !!

وهكذا تكون الحفاوة بالغائب العائد إلى ربه .. مهما كانت ذنوبه .. فإذا كان هذا المستغفر التائب شابا .. كانت الحفاوة به أشد .. من حيث كان فتى واقعا بين شقى الرحى :

فغرائزه من داخله تهتف به .. لإشباعها

والحياة من حوله تغريه بما لذ وطاب من فنونها .. فإذا استطاع تحرير نفسه .. من هذه الشواغل .. فقد استحق كل هذا التكريم .. إلى الحد الذى يشغل الملأ الأعلى هناك .. حتى قيل :

إن التائب إذا كان شابا .. هنأت الملائكة بعضهم بعضا بعودته إلى ربه !!

هذا فى السماء .. فماذا على الأرض ؟!

عليها ذلك الموقف من قبل إمام لا نشك فى إخلاصه ، ولا نزكى على الله أحدا والله حسيبه..

لكن الإخلاص هنا لم يحسن التعبير عن نفسه بهذا التجهم فى وجه عبد هرب من سيده .. ثم ها هو ذا يعود إليه تائبا.

وعلينا أن نسائل الواقع ليجيبنا عن آثار هذا التجهم - ولا نقول التهجم- .. إنه واحد من احتمالين أحلاهما مر :

إما أن يصاب هذا الفتى بالكبت .. بالإحباط الذى يشل حركته .. فينزوى معتزلا مجتمعا لم يستوعب همومه .. فنخسر بذلك عضوا عاملا ..

وإما أن ينطلق مدمرا .. على حل شعره .. ما دمنا لم نلتمس له العذر ليستأنف الحياة من جديد .. فنخسر بذلك طاقة للبناء والتعمير ..

وعندئذ لا نكون فقط قد وضعنا فى يد الفتى فتيلا .. وإنما جعلنا من قلبه نفسه فتيلا قابلا للاشتعال بالكراهية والتمرد.

وما تزال حكمة الإسلام .. وواقعية الإسلام تنادينا أن نحسن استقبال هؤلاء العائدين ..

هذا الإحسان الذى يتم فى ظل ما سنه الرسول ﷺ .. والذين اتبعوه بإحسان..

هذا الرسول الذى كان يبتسم من قلبه .. مبتهجا بعودة الهاربين إلى البيت الآمن .. الأمر الذى صب فى قلوبهم عزما .. وفى إرادتهم قوة .. ولم يكن الإسلام موجودا فقط فى وجوههم - على أهمية ذلك - وإنما صاروا بالتوبة روادا .. للإسلام فى كيانهم كله وجود مكثف :

كان فى القلب .. حبا ..

وفى اليد عطاء ..

وفى اللسان .. حلو الكلام ..

وهذا هو الإسلام !

ماذا عن الغضب ومسئولية الغاضب؟

الغضب : جزء من الطبيعة الإنسانية لا مفر منه ابتداء :

فالإنسان فى سعيه على درب الحياة .. يتلفت حوله على جانبى الطريق فيجد ما يوافق غرضه .. وأيضا يجد ما يخالفه.

وإذن .. فلا مفر من حبه ما يوافقه . وكراهة ما يخالفه :

فإذا أخذ منه ما يحبه .. أو حدث له ما يكرهه .. ظهرت غريزة الغضب فى الحالين لتباشر عملها.

إلى هنا والأمر عادى ..

ولكن **غير العادى** أن نترك لهذه النزعة الفطرية أن تنطلق بلا ضابط .. بلا إرادة تقف بها عند حدها المرسوم : دفاعا عن النفس .. وردعا للمعتدى .. لتكون نارا تأكل الأخضر واليابس . **والمطلوب هو** :

أولاً : عدم تعاطى أسباب الغضب ابتداء .. بتحاشى الأمور الباعثة عليه .. وقاية منه . قبل أن يستشرى فيصعب العلاج وما أجمل الصحبة الطيبة .. وما أكرم المجالس الخيرة .. التى تعين الإنسان على أمر الله .. فلا يغضب .. وإن غضب فما أقل الخسائر ..

ثانياً : فإذا فرضت المعركة على الإنسان .. فليذكر أن ما يحققه بغضبه أقل مما يحققه بصبره من الثواب الجزيل .. وهو أثقل فى ميزان الإنسان من انتصار وقتى مشفوع بندم يسلب هذا النصر الموقوت مضمونه . قال ﷺ : (ما من جرعة أعظم أجرا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد اتقاء وجه الله)[١]

ثالثاً : وتحصينا لنفسه مستقبلا عليه أن يتأمل صورة الغاضبين من حوله .. ليرى من ملامحها .. بل من مقابحها .. ما يذكره بمنظره هو لحظة الغضب ..

(١) (رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنه).

فماهى هذه الصورة المانعة من الغضب ؟

الصورة ترسمها ريشة الإمام الغزالى فى قوله :

(ومن آثار الغضب فى الظاهر :

تغير اللون . وشدة الرعدة فى الأطراف . وخروج الأفعال من الترتيث والنظام. واضطراب الحركة والكلام . حتى يظهر الزبد على الأشداق . وتحمر الأحداق . وتتقلب المناظر. وتستحيل الخلقة - أى تتغير -.

ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته . واستحالة خلقته).

ولاشك أن هذه الظواهر المنفرة صورة لباطن ممزق .. متوتر تتم به صورة الغاضب قبحا.

ومن توجيهات السنة قوله ﷺ :

(إن الغضب من الشيطان : وإن الشيطان خلق من النار . وإنما تطفأ النار بالماء . فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) (١)

فإذا كان الغضب شديدا.. فليغتسل كما تقول الرواية الأخرى :

(إذا غضب أحدكم فليغتسل)

وهذه الحركة من شأنها أن تغير وضع الإنسان الغاضب .. حين تخرجه من هيئته الغاضبة إلى هيئة المتوضئ أو المغتسل .. وتغيير هيئة الغاضب عامل آخر مساعد على التخلص من شحنة الغضب وذلك قوله ﷺ :

(إذا غضب أحدكم وهو قائم .. فيلجلس . فإن ذهب عنه الغضب .. وإلا فليضطجع) (٢)

ومن وراء ذلك كله : اللجأ إلى الله تعالى .. وهو نعم المعين

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب.

(٢)رواه أبو داود فى الأدب

إلى أى حد كان تعلق المسلم بالمسجد شهادة بقوة إيمانه ؟

إذا كانت الجنة غاية المسلم .. فإن الحديث الشريف يرسم الطريق إليها.

وهو تعلق قلبه بالمسجد .. فإنه بهذا التعلق واصل إليها ..

وإذا كان حب الثناء طبيعة الإنسان .. فإنه يستثمر هذه النزعة البشرية لحسابه .. حين يلفته إلى ما يلبى هذه الحاجة فى كيانه .. بشهادة الناس له والثناء عليه .

وإذ يقول الحديث الآخر . والمتفق عليه :

(ومن غدا إلى المسجد أو راح .. أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح).. فإن هذا الغدو والرواح إذا صار له عادةتابعة من شوقه إلى بيت الله .. فقد تحقق إيمانه وثقل ميزانه فى يوم الامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان .

فمقصود الحديث إذن : توجيه المسلم إلى المسجد .. إلى الواحة الظليلة .. ليتعلق قلبه به .. متجاوزا ما يتنافس فيه المتنافسون من مجالس اللهو واللعب ..

إلى الحد الذى يخرج فيه من المسجد بعد أداء الفريضة .. ليترك قلبه هناك .. سابحا فى روضانه .. سائحا فى مغانيه ومعانيه .. ليصبح الحضور فيه هو القاعدة .. والتقلب فى البلاد هو الاستثناء.

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بوصف الإيمان .. لماذا ؟

١- إن ارتباطه بالمسجد : هو فى الواقع تعلق بقيم المسجد من الأخوة .. والوحدة .. والمساواة .. والتعرض لبركات السماء .. صعوداً فوق بركات الأرض.

٢- ثم إن هذا التعلق صار له عادة .. أى طبيعة ثانية : طبيعة مغموسة فى هذا الجو الطهور .. لا ترضى به بديلا فى زمان تذل مطامع الدنيا من حوله جماهير غفيرة.

٣- وقد يكون هناك من يتباهى - كما أشار شيخنا الغزالى - برؤيته فى مجلس لهو طلبا للتقدمية .. وفرارا من وصمة الرجعية .. فإنه - أى المتعلق بالمسجد- هو التقدمى بحب المساجد بين راكع وساجد.

٤- مع ملاحظة أن هذا الاعتياد على المسجد .. شهادة جماعية .. لا فردية .. فالحى كله شاهده .. وهو عليه شهيد ..

وذلك قوله (إذا رأيتم ..)بضمير الجمع

٥- والتعبير بإذا - ومد خولها متحقق - يؤكد أن ذلك صار معلوما من الناس بالضرورة لا يختلف فيه اثنان.

٦- ثم إنه متعلق .. لا بمسجد الحى وحده .. وإنما هو متعلق بالمساجد : بكل مسجد .. فحينما ساقته أقداره .. وسمع الأذان .. طارت به الأشواق التى تسبقه إلى هناك.

ورجل هذا شأنه ينبغى أن نشهد له بالإيمان .. لا ليتربع على القمة وحده .. وإنما يشجع الله تعالى به الآخرين على الصعود .. إلى نفس القمة العالية.

وينبغى أن ندرب أشبالنا على تسلق الجبال العالية .. بالهمة العالية .. والقدوة الطيبة . والتى تتمثل فى والد يسمع الأذان .. فيقوم نشطا .. قاطعا كل برامج البيت فى حركة يدرك الصغار عندها أن أمرا مهما قد حدث ..

وعندئذ تتخلق فى كياناتهم همة .. تتنامى .. ومع الأيام .. صاعدة .. فى جو السماء .. نسورا فى الجو .. وعبادا فى الأرض .. رهبانا بالليل .. وفرسانا بالنهار.

نسمع أن لبعض سور القرآن فضلا على سور أخرى فما مدى صحة ذلك؟

في « رياض الصالحين » - وفي باب الحث على سور وآيات مخصوصة - مجموعة من الأحاديث الصحيحة .. والتى تحرض المؤمنين على التنافس فى قراءة آيات وسور مخصوصة لما لها من آثار طيبة فى حياة المسلم . منها :

(أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم .. وقالوا :

أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال :

« قل هو الله أحد . الله الصمد ثلث القرآن » (١)

وعن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :

« من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٢)

والحكمة فى ذلك :

أن مغريات الحياة كثيرة .. والناس بطبعهم مولعون بها .. وقد تستغرقهم فتجرفهم بعيدا عن الخط المستقيم ..

من أجل ذلك يحثهم ﷺ على الارتباط بسور وآيات معينة .. لما فى هذه السور والآيات من معان وحقائق لو تمثلها المسلم لملأت قلبه نورا .. فأبصر طريقه .. ولصبت فى إرادته من التصميم ما يعينه على مجاوزة المواقف الصعبة .. وتخطى العقبات بسلام . فإذا تحقق هذا الهدف القريب .. قاد المسلم إلى تحقيق الهدف الأكبر وهو : الارتباط بالقرآن الكريم ككل .. ليكون حاضرا فى وعى المسلم أبدا.

---

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

أمـا عن سـورة «يس» وهذا الحديث المذكور فى السؤال .. فقد وردت فى فضلها أحاديث منها :

(من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له فى تلك الليلة)[١]

فالمغفرة الموعود بها :

فى تلك الليلة التى قرئت فيها .. وتتجدد المغفرة بتجدد قراءتها. على أن تكون القراءة لله تعالى . وليست لدنيا نصيبها . ثم تكن قراءة اللسان منطلقة من قلب الإنسان الذى صارت السورة فيه حاضرة ومؤثرة ..

وذلك ما يشير إليه حديث رواه البزار عن ابن عباس رضى الله عنهما :

قال النبى ﷺ فى سورة يس :

(لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى)

وكونها «فى القلب» مستقرة .. مستمرة .. يعنى وجودها حارس يقظ فى كيان الإنسان يمنعه من الزلل . أى : وجود طاقة دافعة .. كما جاء فى نفس السورة لينذر من كان حيا .. فالقرآن حياة .. أعنى : قوة وحيوية .. ونشاطا.

أما ما يقول السائل عما قرأه :

من أنها (.. من كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء .. الخ)

فقد أشار الترمذى إلى ضعف إسناده

وجاء فى فتح القدير :

أنه منكر ..

ولا يبعد أن يكون موضوعا :

فهذه الألفاظ كلها منكرة . بعيدة من كلام من أوتى جوامع الكلم)[٢]

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب وغيره.

(٢) راجع فتح القدير - تفسير يس ص ٣٥٨.

يعنى ليس عليها من سمات الحديث الشريف علامة ولا برهان.

ونقول نحن للسائل الكريم :

لقد أشار الحديث الشريف من قبل إلى تمنى أن تكون يس فى قلبه ..

فى قلبه .. وليس فى أمعائه ..

فى قلبه هداية .. وضياء ..

وليس فى معدته .. شرابا .. وغذاء ؟!!

أهميــة الحريــة

عن أهمية الحرية فى حياة الفرد والمجتمع يقولون :

(إن كل متاعب الحرية . وآثارها الجانبية فى مائة عام . لا تساوى مأساة قهر الحرية فى يوم واحد).

ذلك بأن (التفكير الإنسانى - فى مناخ الحرية - يمكن أن يسير فى خطوط مستقيمة . ولو انحرف عن هذه الخطوط . فإن تصحيحه أمر ممكن ويسير.

أما فى غياب الحرية . فإن التفكير الإنسانى عادة ينزلق إلى القرار البعيد . المظلم للعنف .. والدم .. والجريمة).

إن الحرية فى الإسلام قيمة .. وقيمة أساسية .. لا حياة للإنسان فى غيابها :

ذلك بأن الإنسان بفطرته محب للحياة حبا يحمله على السعى الدءوب لاستيفائها.

لكن حلم الإنسان هذا لا يتحقق بسهولة .. فعلى جانبى الطريق مخاطر قد لا تمكنه من تحقيق هذا الحلم الجميل :

قد يكون الخطر كامنا فى حكومة غاشمة ..

أو فى قطاع طريق .. من أعداء الحياة ..

فإذا لم تكن للإنسان حرية السعى والكسب والتصرف .. لأصبح كما مهملا لا قيمة له ..

ولو أهمل فى المطالبة بهذه الحرية ومواجهة الحياة بها .. لتفرد الظالمون بأقدار الحياة .. فأضاعوها .. وأضاعوا أنفسهم.

معنى الحرية :

يقول العلماء فى تحديد معنى الحرية :

إن كلمة الحرية تعنى : النقاء .. والصفاء .. والخالص من كل شئ ..

فالحر : خلاف العبد ..

والحر من الطين والرمل : الطيب منه .

والحرة من السحاب : الكثيرة المطر.

فإذا انتقلنا إلى الإنسان برزت لنا عناصر الحرية كما لاحظها البصراء بطبائع النفوس.

فماهى تلك العناصر الرئيسة المكونة لمعنى الحرية ؟

١- معرفة الإنسان بما عليه من واجبات . وماله من حقوق. لأن جهل الإنسان بحقوقه وواجباته إزاء نفسه ومجتمعه يؤدى إلى الفوضى التى يختل بها النظام.

٢- شرف النفس وطهارتها التى تبعد بها عن مواطن الظلم والهوان.

٣- الخضوع للقوانين المؤسسة على العدل والإنصاف.

٤- عزة النفس وأنفتها التى تمكن الإنسان من أن يواجه الظالم قائلا : لا .. لهذا الظلم.

روافد الحرية :

والإسلام العظيم يمنح أتباعه الحرية حين لم يفرض عقيدته فرضا .. بل ترك الإنسان حرا فى اتخاذ قرار الإسلام .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾

وقد سد الإسلام منافذ الرق والعبودية عندما شجع على تحرير العبيد .. وحض الخطائين على فك الرقاب للخروج من تبعاتهم.

ما هو حكم المسابقات ذات الجوائز المادية ؟

خلق الله تعالى الإنسان كادحا إليه سبحانه كدحا .. عاملا .. ساعيا .. عبر رحلة العيش المضنية ..

والرحلة هنا ليست سياحة ترفيهية .. ولكنها معاناة لأحداث الحياة تفرض عليه أن يكون مستعدا لملاقاتها .. باقتحام عقباتها ..

ولن يصل بسعيه الموصول إلى تحقيق المأمول .. إلا باستنفار كل قواه النفسية والروحية والمادية.. ليكون على مستوى معركة العيش المستمرة ..

وقد استجاب الإسلام لهذه الحاجة .. عندما حرص الإنسان على أن يكون طموحا فى مغالبة الأحداث .. فكان من مقرراته :

إذا سألتم الله الجنة .. فاسألوه الفردوس الأعلى .. كونوا فى سباق مع الزمن: بمعنى أن يكون همنا الأكبر هو الفردوس .. لنحشد لذلك الأفق الرفيع كل طاقتنا .. ولا ندخر وسعا فى ذلك حتى لا نسقط فى الطريق.

وإذن .. فلا بأس أن يدخل المسلم فى سباق مع الآخرين .. إلى غاية شريفة .. ما دام ذلك شحذا لهمته . وصقلا لإرادته .. وتدريبا له ليظل مستوفيا لياقته لخوض تجربة الحياة بنجاح.

ولم تكن استجابة الإسلام هنا مطلقة :

وإنما كانت على شرطه : **فلابد فى المسابقات على الطريقة الإسلامية مايلى:**

أولاً : أن يكون موضوع المنافسة شرعيا :

وكيف ؟

كأن ترصد الجوائز لحفظ القرآن الكريم . أو استيعاب كتاب معين. أو لون من الرياضة البدنية التى يصح بها الجسم .. فيسلم به العقل.

ثانياً : أن يكون موضوع المسابقة مثيرا فعلا للنشاط : الجسمى .. والنشاط العقلى معا . فلا يكون حركات عشوائية تستهلك الطاقة بلا عائد مقبول.

والسباق بهذا الشرط الإسلامى لا يكون قمارا ..

لأن القمار .. إنما يدفع فيه الخاسر .. من الطرفين ..

وما يترتب على ذلك من غليان الدم فى العروق . والذى يتحول فى النهاية إلى صراع يقطع من الصلات ما أمر الله به أن يوصل.

أما فى المسابقات الإسلامية :

فإنها ظاهرة صحية :

لأن جهات الخير تتنافس فى رصد المكافآت المالية والعينية .. إسهاماً منها فى إحياء دوافع الخير . وكوامن المواهب الراكد فى قلوب ناس مغمورين .. ولولا هذه الجوائز .. لحرمت الأمة من مواهبهم ..

وإذن فالدافع هو : جهة واحدة خيرية .. أو أكثر (لكن هدفها جميعا واحد)

والنتيجة بطبيعة الحال لن تكون واحدة :

لأن الدافع فى القمار .. يكره خصمه .. لأن كلا يركز على مصلحته هو .

أما فى باب الخير .. فإن الكريم يحب الكريم .. لأن هدفهما واحد.

سابق أعرابى رسول الله ﷺ .. فسبقت العضباء ناقة رسول الله. (والعضباء: الناقة مشقوقة الأذن . ومع ذلك لم تكن ناقة الرسول مشقوقة الأذن).

وقد عز على الصحابة رضوان الله عليهم أن تُسبق ناقة رسول الله ﷺ .. وقد أراد ﷺ أن يخفف من ألمهم .. وأن يفسحوا من صدورهم لتقبل النتائج بقلب متفتح فقال :

إن حقا على الله ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه

وكفى بالبيان النبوى نهيا عن التعصب وضيق الأفق.

ماهى آداب العزاء ؟

يقرر الإسلام :

أنه لا عزاء بعد ثلاث . حتى لا نجدد الأحزان .

ولكن نهر العزاء على صفحات الجرائد يظل جاريا على مدى أسابيع .. إنفاقا للمال الذى قد يبلغ أحيانا مئات الألوف من الجنيهات .. مجاملة للأحياء .. أما الميت فلا نصيب له من هذا المهرجان الذى يجامل الأحياء فيه بعضهم بعضا .

أهل الميت مسئولون أولا :

لأنهم أسرفوا فى النعى . الذى لم يقتصروا فيه على مجرد الإعلام بالوفاة .. وإنما حشدوا فيه كل شاردة وواردة من الأقرباء .. فيما يشبه التحريض على مشاركتهم علنا .. لاسيما ممن سبق أن جاملوهم فى مناسبة مماثلة . فلم يكفهم أنهم بذروا .. وإنما على أصدقائهم أن ينشروا وأن يبذروا مع العلم بأن ثمن النعى .. مخصوم من التركة ..

وقد تكون فى التركة وصية ..

وقد يكون فى الورثة قاصر ..

وإذن فليس لأحد أن يتصرف فى حق الوصية . وحق القاصر .

أما المعزون المشاركون :

فقد جاملوا الأحياء .. ولم يجاملوا الأموات ..

جاملوا الأحياء : بهذا التنافس فى شكل النعى الذى يحرص البعض على الإسراف حتى لا يكون نعى أقل من نعى.

ولو جمع ما أنفقوه إلى ما بذله أهل الميت فى نعيهم .. لأمكن به بناء مدرسة

.. أو مسجد .. أو مصنع يصبح صدقة جارية .. جارية بالثواب على روح الفقيد الذى رحل عنا أحوج ما يكون إلى الثواب .. ولسنا – نحن الأحياء - بأقل حاجة منه إلى الثواب .

ونذكر الفريقين معا بهذه الخطبة الوجيزة البليغة . والتى قالها والد على قبر ولده بعد دفنه :

أى بنى :

لقد شغلنا البكاء لك .. عن البكاء عليك

يعنى :

شغلنا بمصيرك .. إلى أين .. إلى جنة .. أم إلى نار ..

ولذلك لم تدمع عيوننا ..

وهكذا يجب أن نكون فى وداع أعزائنا الراحلين .. إذا كانوا أعزاء لدينا فعلا.

وأذكر هنا أننى قلت لمن لامنى لأنى لم أشترك فى حفل تأبين شيخى :

لقد شغلنى الدعاء له .. عن الكلام عنه .

يقول علماؤنا :

لقد تصالح الناس اليوم على أن يقولوا :

أعظم الله أجرك ..

أو أحسن الله جزاءك ..

أو غفر الله لميتك ..

ولا بدعة فى ذلك ، لأنها على أى حال : دعاء للميت .. وللحى على سواء..

والأفـضل : كما قال أشياخنا أن تكون صيغة العزاء كما قال رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالمرأة الحزينة :

(مرها : فلتصبر . ولتحتسب)

ويحملنا على الصبر والاحتساب .. رجاؤنا أن ينعم الله علينا .. بما أخذ منا .. جزاء الصابرين .. وبما أبقى لنا .. زيادة الشاكرين .

والحمد لله رب العالمين .

ما حكم من يجلس فى مجلس غيبة ولكنه لا يغتاب ، ولا يدافع عمن يشتم ؟

يقولون : إن الغيبة هى : ذكر العيب .. بظهر الغيب .. وإذن .. فهى كما قيل أيضا :

إن الغيبة مرعى اللئام .. بمعنى :

أنها غابة من الأشواك والأعشاب الضارة .. والحشرات السامة .. يفضل أناس أن يتريضوا فيها .. تاركين الحلال من البساتين الخضراء .. وما فيها من ظل وماء وثمر.

وإذ يتحمل الخائضون فى سمعة الغائبين مسئولية تشويه آخرين .. لا يملكون الدفاع عن أنفسهم .. فإن الساكتين يتحملون معهم نفس المسئولية .. ويبوؤن معهم بنفس الجزاء

لأن الساكت عن الحق .. شيطان أخرس :

وصحيح أنه لم يتكلم .. لكنه بسكوته .. قد أرخى الحبل للخائضين .. فواصلوا العيب .. وكأنما أضاء لهم النور الأخضر ليواصلوا مهمة هو موافق عليها .. بل وسعيد بها .. أحيانا على الأقل..

ولو أن المسلم دافع عن أخيه بظهر الغيب .. لسخر الله تعالى له من يدافع عنه لو انتهكت حرمته غدا .. والجزاء من جنس العمل ..

ولو خذله .. لخذل فى موقف مماثل ..

والذين يحصدون سمعة الأبرياء بالمناجل : ستحصدهم المناجل .. ومن حفر الخنادق .. سوف تدفنه الخنادق ..

والعجيب أن بعض محترفى الغيبة المتخصصين فى تشويه سمعة الأبرياء ..

قد يقدمون لبعض من في المجلس رشوة بمدحه في وجهه ليضمنوا سكوته على الأقل..

لكن النتيجة تأتي على غير ما يشتهي الساكتون .. كيف ؟

فالقانون الاجتماعي يقول :

اتق من رفعك فوق قدرك .. فهو اليوم يعطيك ما ليس من حقك .. مادحا .. وغدا .. سوف ينقص منك ماهو حقك كادحا.

وإذا ذكر جليسك أحدا بسوء .. فاعلم أنك الثاني.

والأصل في ذلك قوله تعالى :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره .. ﴾ (١)

وإذن .. فأنت مكلف بمقاطعة مجالس الغيبة .. بالإعراض عنها .. حتى تحرجهم بمقاطعتك .. ولعلهم أن يمسكوا ..

فإن بقيت .. فما هديت .. وأنت آثم .

وفي سنة رسول الله ﷺ :

فقد قالت عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ (حسبك من صفية قصرها)

ورغم أنها عائشة .. زوجته

بل وأحب زوجاته إليه ..

رغم هذا .. فقد نهرها قائلا :

لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته ..

بمعنى أنه لم يجاملها .. وهزها بقوة لافتا نظرها .. ونظر المسلمين من

---

(١) سورة الأنعام الآية «٦٨»

المغتابين .. والساكتين على سواء إلى ما للكلمة الطائشة من خطر إلى الحد الذى تعكر فيه بحرا .. أعنى : تغير لونه بعدما كان رائقا ..

وما أكثر العائبين الناس بصفات خلقية .. ولدوا بها . ولا حيلة لهم فيها .. ولم ينشئوها .. فطول المرأة أو الرجل لا يباع فى الأسواق .. ولا خيار لأحد فيه .

أما بعد : فمن اغتاب فقد خرق .. ومن استغفر فقد رفأ .

جاءت قصة يوسف فى القرآن مرة واحدة ولم تكرر. فلماذا ؟ وما المقصود بكونها آيات للسائلين ؟

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

سألت اليهود النبى ﷺ فقالوا : حدثنا عن أمر يعقوب وولده . وشأن يوسف .. فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وإذن .. فالموقف هنا واحد من امتحانات متعددة .. حاول اليهود بها إحراج الرسول ﷺ .. لكن الله تعالى كان معه بالنصر والتأييد .. والنجاح فى كل ما دبر اليهود من مؤامرات .

وربما - وفى ضوء سبب النزول هذا - ربما جاز لنا أن نقول بضرورة أن تذكر القصة بكل حذافيرها وهذا هو الذى حدث :

أولاً : إفحاما لليهود وخذلانا ..

لأن الاقتصار على بعض جوانبها .. ربما لا يسقط دعوى الخصم بالمرة . بحجة أنه لم يجب طلبهم كما أرادوا ..

وقد سمعت من أحد شيوخنا سببا آخر هو :

أن فى سورة يوسف مشكلات أسرية .. وحديثا عن العرض .. والشرف .. والأليق فى هذه القضايا الحساسة .. أن تذكر مرة واحدة .. تحقيقا للعبرة .. ولا داعى للتكرار سترا للأعراض بصيانتها عن القيل والقال .

أما فيما يتعلق بالقصص الأخرى .. فقد كررت .. تلوينا للخطاب .. وتصريفا للقول .. بحيث يذكر من قصة نوح مثلا مشهد يتفق مع مقصد السورة التى ذكر فيها .. وهكذا .. مما يتفق ومصلحة المدعو الذى ندور حوله بمختلف المشاهد .. وفى مناسبات متعددة .. لعله أن يفيق .

كانت القصة أولا آية لليهود على نبوة محمد ﷺ . لأنه أخبرهم بما كان غافلا عنه .. وماعلمه إلا عن طريق الوحى .

ثم هى للسائلين من المؤمنين آيات تؤكد حكمة الله تعالى فى تدبير أمور البشر.. وأنه تعالى إذا أراد أمرا يسر له أسبابه ..

وقد أشار صاحب تفسيرالمنار إلى هذه الآيات بما يعلم الناس ألا يكتفوا بالظواهر فى الحكم على الناس والأحداث . وأن ما يصيب المرء من سوء قد يكون حلقة فى سلسلة تنتهى بالفلاح والنجاح .. قال :

(كان فى قصة يوسف وإخوته أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته . وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده . وتربيته لهم . وحسن عنايته بهم للسائلين عنها : من الراغبين فى معرفة الحقائق . والاعتبار بها.

... فإخوة يوسف : لو لم يحسدوه .. لما ألقوه فى غيابة الجب .. ولو لم يلقوه .. لما وصل إلى عزيز مصر .

ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه - يقصد يوسف - لما أمنه على بيته ورزقه وأهله.

ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم .. لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها.

ولو لم تخب فى كيدها .. لما ألقى فى السجن لإخفاء هذا الأمر ..

ولو لم يسجن لما عرفه ملك مصر .. ولما كانت له هذه المنزلة وهذا المنصب الذى استقدم بسببه إخوته وأباه ليقاسموه ماهو فيه من رياسة ومجد).

وواجب الشباب اليوم هو ما يفرضه عليهم الإيمان بالله تعالى .. من الأمل فى الله .. ورفض اليأس من رحمته.

فإذا وكل إليهم أمرا .. فعليهم أن يبذلوا طاقاتهم فى سبيل إنجازه .. سواء كان مشروعا علميا .. أو اقتصاديا .. وبدل من أن يسقطوا فى منتصف الطريق .. عليهم أن يواصلوا المسير .. إلى أكرم مصير .. كما وصل رائد لهم من قبل هو : يوسف عليه السلام .

كيف يجتنب المسلم الغيبة حتى يتفادى مضاعفاتها ؟

ونقول وبالله التوفيق :

الغيبة هى : ذكرك أخاك بما يغمه لو سمعه .

والخطوة الأولى على طريق التخلص منها هى :

أن تعرف من أين تهب ريح الغيبة .. لتسد هذه الأبواب .. فتريح وتستريح..

إن من أسباب الغيبة أمورا هى :

١- سوء الظن .

٢- الحسد .

٣- الغرور .

والمسلم مطالب بحسن الظن بأخيه المسلم . وحمل تصرفاته على أحسن محاملها. كما وأن الحسد لا يليق بمسلم يعلم أن الحسد اعتراض على تكريم الآخرين .. وعليه أن يشغل قلبه بهم السعى بدل أن يرهقه بكراهة الآخرين. ثم إن الغرور يحمل على التركيز على مميزات النفس فقط . وبالتالى تجاهل فضائل الآخرين.

وعلى المغتاب أن يسأل نفسه :

هل حققت بالغيبة مصلحة شرعية أو قومية ؟ بالطبع لا ..

وخير لك أن تفعل ما كان يفعله الرجل الصالح الذى كان يطعم مسكينا كلما اغتاب أحدا .. ولما أحست نفسه بثقل التكليف أقلعت عن الغيبة .. وهذا هو طريق الخلاص لكل من كان جادا فى طلب هذا الخلاص .

قال ﷺ (عن المقدام بن معد يكرب) :

(ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه . ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن . فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله ..) الحديث [١]

وفى رواية :

(بعثت بجوامع الكلم)

التعليق : عندما يقول ﷺ : «بعثت» فيعنى ذلك أن السنة المطهرة جزء من رسالته .. وهى مع القرآن الكريم بيان لمراد الله تعالى ..

وصحيح أن كل شئ فى القرآن الكريم .. ولكن صحيح أيضا : أن أفهامنا قاصرة عن إدراك كل أسرار القرآن .. ولابد من بيانه .. وتلك وظيفة السنة المطهرة..

وذلك ما أشار إليه ما أخرجه البيهقى عن يحيى بن كثير قال :

« السنة قاضية على الكتاب . وليس الكتاب قاضيا على السنة »

وما أخرجه عن مكحول :

« القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن »

ومعنى ذلك كله :

(أن معنى احتياج القرآن إلى السنة : أنها مبينة له . ومفصلة لمجملاته.

لأن فيه - لوجازته - كنوزا تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها.

وذلك هو المنزل عليه ﷺ .

وهو معنى كون السنة قاضية عليه وليس القرآن مبينا للسنة . ولا قاضيا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه وأحمد بسند صحيح.

عليها لأنها بينة بنفسها . إذ لم تصل إلى حد القرآن فى الإعجاز والإيجاز . لأنه شرح له . وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح)[١]

الكائـدون للسـنة

وقد عز على أعداء الإسلام أن تظل السنة قائمة على أصولها .. تبين للناس ما نزل إليهم .. ومن ثم دبروا أمرهم بليل ..

وقد جاءت الهجمة من الخارج ممثلة فى المستشرقين الذين وزعوا الأدوار بدقة .. وأخذ كل فريق موقعه ليضرب السنة فى زاوية من زواياها .. وإذا كان هؤلاء منطقيين مع أنفسهم حين يوجهون سهامهم إلى السنة المطهرة .. فكيف بمن يتكلمون لغتنا .. بل ويدينون بديننا ..

إن خطر المؤامرة حينئذ أنها من الداخل ..

ولكنه ﷺ يتنبأ بها .. ثم يحذر منها ..

ويلاحظ فى الحديث الشريف مايلى :

أن الذى يتولى كبر هذه الحملة الظالمة .. رجل ..

ثم هو : شبعان : مترهل .. كسول .. ملول ..

وهو مغرور لأنه متكئ .. على سريره .. مستهترا .. وهو متكئ على أريكة .. فهو مترف :

لأن الأريكة هى :

سرير .. منجد .. مزين .. وفى قبة ..

ثم هو مصنوع من شجرة متميزة : وهى الأراك ..

والأراك : شجرة طويلة .. ناعمة .. كثيرة الأوراق والأغصان ..

---

(١) مفتاح الجنة للسيوطى / ٥٩.

وإذن فهذا المترف الهجام على السنة هو الباب الذى تهب علينا منه الريح ..

واللاهون المترفون هم أعداء دعوات الإصلاح فى كل عصر ومصر .. وها هى ذى مصانع هوليود .. فى أمريكا .. وهى مختصة بصناعة أدوات اللهو والترفيه ..

لقد استطاعت أن تحبط مفعول كل ما فعلته المؤسسات التربوية هناك !!

أهمية الاستعداد :

ولأن الهجمة ممولة من جهات لا تريد بنا خيرا .. فيجب أن نستعد ..

وعن أهمية هذا الاستعداد يقول ﷺ :

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ .. »

إنه إذا كان الأعداء يتفننون فى سحب البساط من تحت أرجلنا .. فيجب أن نعض على هذا التراث .. ولا نفرط فيه .. ونعض عليه بالنواجذ .. بالذات .. لنستوثق منه .. وحتى نكون فى إصرارنا عليه أقوى من محاولات الأعداء المستميتة .. وقبل أن تطيش ألبابنا فى مهاوى الضلال .. وتلك غاية أعدائنا .

والله معنا ، ولن يترنا أعمالنا ..

لقد تظاهر عليه ﷺ من تظاهر .. فجاء النذير المدمدم :

(وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح[1] المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)[2].

واليوم .. وحين يتنادى الأعداء بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .. فإننا نذكرهم بهذا التحذير الإلهى .. فليحذر الذين يخالفون عن أمره

موقف :

ذهبت المرأة إلى الطبيب فقال لها :

---

(١) قال بعض المفسرين : لم يقل تعالى : وصالحو .. بالواو .. ليشمل كل صالح فى الأرض.

(٢) التحريم الآية رقم « ٤ » .

العلة خطيرة فلا شفاء .. فلا فائدة من العلاج !!

وعادت المرأة كاسفة البال .. منكسة الرأس .. ولكن هجمة اليأس لم تطفئ في قلبها جذوة الأمل ..

وقررت أن تؤدى عمرة .. وفعلا أدت العمرة ..

ثم عادت مولودة من جديد .. فقد أذهب الله العلة .. وعاشت ما أذن الله لها أن تعيش .. وربما مات طبيبها حكمة منه تعالى .. هو بالغها .. ولا ندرك سرها ..

وهكذا .. كانت المرأة الريفية الأمية أعرف بفضل الله تعالى من علماء ملأوا الدنيا علما .. وطار اسمهم فى الآفاق ..

هؤلاء الذين يذكرون الناس بما فى القيامة من أحوال وأهوال .. فلا شفاعة .. ولا ضراعة .. وإنما هو قانون العدل الصارم .. والذى يستبعد الفضل عندئذ استبعادا ..

وفهمت المرأة الدرس :

لقد تذكر هؤلاء صفات الجلال يومئذ .. فقنطوا .. وأقنطوا الناس .. ولكن المرأة تذكرت صفات الجمال .. فبقى خيط الأمل فى قلبها .. لم ينقطع أبدا .

رحمة الله الواسعة :

والخطاؤون مدعوون إلى إدراك سعة رحمته تعالى .. والتى تجعل من عفو الله تعالى عنهم أملا يراودهم .. فما كان لله تعالى أن يسترنا فى دار الفناء .. ثم يفضحنا فى دار البقاء !

والسؤال الذى يفرض نفسه :

هل يعاملنا الله تعالى بقانون العدل .. أم بقانون الفضل ؟

الحق أنه تعالى يعاملنا بالفضل .. تكرما منه سبحانه :

وكما جاء فى الحديث :

(إن الله كتب الحسنات والسيئات ..)

فالحسنة المعزوم على فعلها .. إذا لم يفعلها المكلف .. كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة .. والعدل ألا تكتب .. لأنها لم تفعل ..

فإذا عملها : كتبها الله تعالى عشر حسنات .. إلى سبعمائة ضعف .. إلى ما شاء تعالى من أضعاف ..

وانظر إلى الأمل كيف يمتد .. ويمتد .. لكن الخيال عاجز عن ملاحقة هذا الكرم الإلهى الفياض .. والمشار إليه يقول : إلى ما شاء من أضعاف .. (لم يقل إلى ما شاء من حسنات).

والأمر كذلك فيما يتعلق بالسيئة :

فمن لم يفعلها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة .. فإن فعلها .. كتبها سبحانه سيئة واحدة ..

وهكذا يعاملنا سبحانه بالفضل والإحسان ..

حتى هؤلاء الذين ينكرون الشفاعة .. لأنهم معترفون بأنهم مذنبون .. وطبق قانون العدل . كان المفروض ألا يظلوا أحياء .. وإذا أبقى الله عليهم .. يعذبهم ..

لكنهم الآن أحياء .. يرزقون فضلا منه تعالى ..

وذلك ما يشير إليه قوله سبحانه :

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ..﴾ فاطر ٤٥.

﴿ولو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ..﴾ الكهف ٥٨.

روح الاستبشـــار :

يريد الإسلام أن يظل المسلم أبدا حسن الظن بربه .. مستبشرا مسرورا .. ونقرأ فى ذلك أنه لما وفد «وكيع بن الجراح » إلى مكة المكرمة . وجده «الفضيل» سمينا بضا . فقال لوكيع :

ما هذا السمن ؟! «منكرا عليه»

فأفحمه «وكيع» قائلا :

من فرحى بالإسلام !

إنها الروح المستبشرة .. البعيدة عن مرمى الانفعالات المدمرة . لا يعرف الحزن ولا الخوف إليها سبيلا ..

هذه الروح التى تسكن بيتا : جميلا .. مريحا .. هو : الجسم .. وما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا .

من مسوغات التفاؤل :

يعين على التمكين لهذه الروح فى نفس المؤمن من قوله تعالى :

﴿ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا .. ﴾ [١]

إنهم الملائكة يد عون للإنسان بظهر الغيب .. وقد يكون نائما يتقلب فى فراشه .. بينما حملة العرش يستغفرون له .. وحملة العرش بالذات .

ولاحظ فى الآية الكريمة ما يزكى شعلة الأمل .. لاحظ : تقديم الرحمة على العلم ..

فالرحمة أولا .. والعلم ثانيا .. وليتعلم الإنسان .. من خالق الإنسان..

---

(١) سورة غافر الآية «٧» .

الرحمة فى دار البقاء

يقول سبحانه :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١)

وهذه أرجى آية فى كتاب الله : ومن مظاهر ذلك :

مناداتنا بحرف النداء «يا» .. وهو مختص بنداء البعيد ..

ويعنى ذلك أننا ابتعدنا عن منهج الله .. بل ضربنا فى الأرض حيارى فى صحبة الشيطان ..

ومع ذلك فهو تعالى ينادينا : متوددا إلينا .. متطلفا بنا .. مع أننا المحتاجون إليه سبحانه ..

ثم .. وزيادة فى الإيناس والتلطف يضيفنا إليه سبحانه :

﴿ يا عبادى .. ﴾

ثم ينهانا عن القنوط .. والقنوط هو :

اليأس الشديد من الخير ..

وواجبنا :

ألا نيأس .. ولا نقنط الناس من رحمة الله فشر الناس من يؤيسون من رحمة الله .

ثم يعدنا بمغفرة الذنوب .. مهما كانت أحجامها .. وجميعا .. مهما كانت أرقامها ..

﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾

---

(١) سورة الزمر الآية «٥٣» .

ورحمته تعالى ومغفرته دائم عطاؤها .. ولا يمكن أن يتوقف هذا العطاء لحظة من زمان :

فهو تعالى واسعهما . عظيمهما . كثيرهما ..

ومن فهم غير ذلك فقد ركب متن الشطط .. وغلط أكبر الغلط .

وإذ ينكر البعض أحاديثَ الشفاعة فى دار القرار .. فإن آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة تلزمهم كلمة التقوى :

فآيات القرآن الكريم الواردة فى المحشر .. لا تطفئ شعلة الأمل فى فضل الله أبدا :

يقول تعالى :

﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ (١).

ولاحظ رهبة الموقف .. وكيف يضرب الصمت أطنابه على كل الخلائق .. إلى الحد الذى لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله .. شريطة أن يقول صوابا ..

ثم تأمل اختيار صفة الرحمن .. وما تشى به من أمل ينبغى أن يظل فى القلوب .. لا يغادرها.

ثم نقرأ قوله تعالى :

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ (٢).

﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ (٣).

فالتعبير بوصف الرحمن مانع من اليأس .. داع إلى الأمل فى عفو الله تعالى .. وكان المتوقع أن يقال :

---

(١) سورة النبأ الآية «٣٨» .
(٢) سورة طه الآية «١٠٨» .
(٣) سورة طه الآية «١٠٩» .

وخشعت الأصوات للجبار .. مثلا

أو : لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له القادر القاهر ..

وعندما يبلغ التهديد مداه فى عرصات القيامة يظل اسم الرحمن أملا تجيش به نفوس الخطائين .. وذلك قوله تعالى :

﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ (١)

واقرأ إن شئت قوله تعالى :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾ (٣).

---

(١) سورة الفرقان الآية « ٢٦ » .

(٢) سورة مريم الآية « ٨٨ » .

(٣) سورة مريم الآية « ٧٥ » .

في سورة « الانشقاق » يذكر الله تعالى « السرور » ممدوحا فى الآية التاسعة ، ثم يذكره مذموما بعد ذلك ﴿ إنه كان فى أ هله مسرورا ﴾ وبالنسبة للفرح أيضا ممدوجا مرة ومذموما أخرى

الآية الأولى تتحدث عن المؤمن يوم القيامة **فكيف نوفق بين الوضعين**

تعرض عليه طاعاته .. ثم يثاب عليها .

وفى نفس الوقت تعرض سيئاته .. ثم يتجاوز عنها .

فلا منا قشة حينئذ .. أعنى لا يقال له :

لم فعلت هذا ؟

ولا يطالب . بإبداء عذر ..

ولا يكلف بحجة ..

ثم يتوج الموقف بعودته المبروزة إلى منزله فى الجنة معززا .. مكرما ..

مسرورا بمرتيتين :

أ- بالجنة فى حد ذاتها .. والتى صار واحدا من أصحابها .

ب- ثم بصحبته أولاده وزوجاته من الحور العين .

أما الآية الأخرى فإنها تتحدث عن الشقى :

فقد استراح فى الدينا من تعب العبادات ..

وطالما فرح فى الدنيا باستبقاء حياته .. من حيث لم يجاهد فى سبيل الله فلم يعرض نفسه للهلاك .

ولقد كان فى دنياه آمنا من الحساب والعقاب . لا يخاف نار الله .

كما وأنه لا يرجو جنته ..

ثم كان واحدا من شلة المستهزئين بالمؤمنين .. الذين كانوا [إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين] .. إذا رجعوا إلى بيوتهم فى الدنيا [رجعوا معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية . والتنعم بالدنيا]

ذاكرين المسلمين بالسوء .. مسرورين بما يزعمونه تدليلا لهم . إذن .. فالجهة منفكة .. بمعنى:

أن كل آية تتحدث عن نموذج مختلف عن الآخر .. ولا يردان على شئ واحد .. فلكل سرور مذاقه الخاص.

ونكرر .. ونقرر نفس الجواب :

فالفرح المحمود هو الذى تختلج به نفوس المؤمنين :

والذين لا يفرحون غرورا واستعلاء .. وإنما يفرحون بفضل الله ورحمته . وبكل قيمة شريفة .. هى أغلى عندهم من كل ما يتنافس فيه المتنافسون ..

وذلك مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ (١) .

وقوله عزوجل عن الشهداء:

﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ (٢).

فالأحياء من المجاهدين يفرحون .. لأن الله عذب الكافرين بأيديهم فخرج الحق بهم غالبا ..

والذين استشهدوا يضيفون إلى هذا الفرح .. فرحهم بما آتاهم الله فى الآخره من فضل وكرم .

وأما الكافرون النافرون من الحق :

فإنهم يفرحون فرح طغيان .. ونسيان للمنعم سبحانه .. مع تذكر النعمة وحدها..

ومثلهم : قارون .. الذى نهاه العقلاء من قومه عن هذا النوع من الفرح الطاغى قالوا: ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾

ثم التلاميذ فى مدرسته من الذين قال الله تعالى فيهم :

---

(١) سورة الروم الآية « ٤ » .

(٢) سورة آل عمران الآية « ١٧ » .

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ وقال ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾

ولاحظ الفرق الهائل . من المؤمنين الذين يقدمون حياتهم لله .. فرحين بنعمة الشهادة .. وبين هؤلاء الفرحين باستبقاء حياتهم .. ولا عليهم من الحق بعد ذلك .. فلا يهمهم فى قليل ولا كثير ..

بإنه الفرق الهائل بين من يفرح بما أخذ .. ومن يفرح بما أعطى

تأمل ذلك ... واشكر الله تعالى على نعمة الإيمان .

ماهو رأى الدين فيمن يسرع فيحكم على كل الناس حكما عاما ؟

بعض الناس يحس بذاته إحساسا حادا قويا .. ينسيه أنه فرد فى مجموعة .. وعضو فى مجتمع ..

ويترتب على هذا الإحساس مايلى :

كل من أحسن إليه .. فهو ملك

وكل من أساء إليه .. فهو شيطان .

ثم تكون النتيجة الطبيعية لهذا التصور هى :

التـورط فى إصدار الأحكام العـامـة : على شـخص .. أو على قـرية . أو مدينة..

فيقول : فلان خير .. بإطلاق .. وعلان شرير بنفس القوة .

وهذه القرية .. أو تلك المدينة ظالم أهلها .. بينما غيرهما من الخير فى المكان العالى .

ومن وراء ذلك مجموعة من العوامل .. منفردة .. أو مجتمعة :

١- أولا : القراءة المتسرعة عن المحكوم عليه .. أو السماع المتعجل ..

ومن جهة واحدة . قد يكون فى قلبها غرض .. أو مرض.

٢- أو قراءة لبعض جوانب الحياة .. وإغفال بعضها .. فلا يتم الاستيعاب اللازم لسلامة التصور ..

٣- ومن وراء ذلك هوى متبع .. أو إعجاب بالنفس . يشوش على العقل فلا يسلم حكمه على الناس وعلى الأحداث .

والإسلام يرفض هذه الأحكام المتعجلة .. لأنها لا تساعد على تصور الأمور تصورا كاملا .. من أجل ذلك يجئ الحكم ظالما .

وكما أن الإسلام يرفض عين الرضا التى تلغى كل السلبيات ..

لتركز فقط علي الإيجابيات .. فإنه يرفض أيضا عين السخط التى تفعل العكس .. **والمطلوب هنا هو :**

النظرة الموضوعية : التى تنوه بالإيجابيات .. ثم تشير إلى السلبيات .. لا تشهيرا بفاعلها .. وإنما تنبيها .. وأخذا بيده حتى يصل إلى بر الأمان .

والحل الإسلامى كامن فى نفس المتسرع :

وعليه أن يدرك طبيعة النفس الإنسانية :

فالله تعالى .. لم يَخلق من هو شر محض ..

كما وأنه سبحانه : لم يخلق من هو خير محض ..

فلم يحرم عز وجل أحد ا .. بل ولا شيئ من فائدة ما ..

حتى السموم ..التى قيل فيها : ومن السموم الناقعات دواء

ثم إن هذا المتسرع مطالب بعد ذلك بما يلى :

أن يسأل نفسه :

هل استوعبت كل أخلاق هذا الذى حكمت عليه . خلقا .. خلقا ..

وتصرفاً تصرفاً ..حتى أحكم عليه هكذا حكما عاما شاملا؟

وهل استقرأت عادات هذه القرية أوتلك ..حتى رضيت عن هذه وغضبت على تلك ..

ذلك مالا يدخل فى قدرة الإنسان

وذلك درس من دروس القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى :

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما﴾ آل عمران -٧٥

فالقرآن لم يحكم على أهل الكتاب حكما عاما .. بل كان موضوعيا .. حين فرّق بين النموذجين ..

بل إنه يحسن الظن بمخالفيه .. حين يبدأ بالأمين أولا .. وذلك منطق الأقوياء

إكتشفت أن خطيبى لا يصلى وهو فى نفس الوقت عازم على أداء العمره .. فهل من حقى فسخ الخطبة . لأنه لا يصلى ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال .. لابد لنا من وقفتين :

وقفه مع هذا الفتى ..

ثم وقفة مع السائلة الفاضلة :

نقول أولا للخاطب :

إن الصلاة حق الله فى ذمتك .. ودين الله أحق بالوفاء.

وإذا كانت حقوق الله فى ذمة العبد كثيرة .. فإن الصلاة تأخذ مكان الصدارة واقرأ سورة « المؤمنون » وسورة «المعارج» لتجد الحديث فيهما عن خصائص المؤمنين مبدوءاً بالصلاة .. ومختوماً بها أيضا .. مما يؤكد أن كل صلة بالناس لاقيمة لها مالم تكن مشمولة بإقام الصلاة .. وما لم يحصن المسلم نفسه بالصلاة .. فكل ما يملكه من فضائل وثيقة بلارصيد !

ونقول لك ثانيا :

إن سؤال خطيبتك جزء من الاهتمام بك ..

فقد وافقت عليك ابتداء .. ومن فرط حرصها عليك تفزع اليوم راغبة فى أن تستكمل عناصر إيمانك .. لتظل فى وعيها رجل المستقبل .

وإذن .. فمما يحملك على أداء الصلاة داعيان :

وفاؤك لربك ..

ثم وفاؤك لقلب مشوق إلى أن تكون عند حسن ظنه بك

ونقول لهذه الفتاة الغيرى :

صحيح أن خطيبك لا يصلى - كما زعمت -

ولكن .. صحيح أيضا أن بذرة التدين كامنة فى قلبه .. بدليل عزمه على أداء العمرة !

ومشكلة كثير من المسلمين - وخطيبك منهم - مشكلتهم الكبرى : أن عاطفة التدين عميقة الجذور فى قلوبهم .. لكنهم لا يحسنون التعبير عنها :

فهناك مدرسه آيلة للسقوط على أدمغة التلاميذ .. لكن المرأة . الغنية فى القرية مصرة على أن تبنى مسجدا .. ولو مات التلاميذ تحت أنقاضها وفيهم ابنتها .. والأمثلة كثيرة منها خطيبك الذى تؤرقه غريزة التدين التى لم يوظفها فى أداء حق الله أولا بالصلاة .. مصرا على زيارة البيت .. مهملا حق صاحب البيت !

والحل هو :

ما دامت نزعة التدين موجودة أصلا فى قلب الفتى .. فلم يضع من يدنا مفتاح الفرج :

إن مناقشة المنحرف .. المنصرف عن الصلاة ماضيا على حل شعره قد تكون صعبة ..

أما فتى مثل خطيبك .. فهو غافل .. يحتاج إلى تنبيه .. ناس يحتاج إلى تذكير .. وسوف يستيفظ الغافل يوما ليرى النور .. فيمضى معك على الطريق المستقيم ..

المهم هو طرح العناد من الحساب .. لأن العناد داع إلى مزيد من الإعراض .

ولا بأس أن تقول له :

رصيدك من الأخلاق عال وغال .. لكن ينبغى أن تضيف إليه الصلاة .. لتظل فى المقدمة دائما ..

إن كثيرا من الخطائين غرقى .. وقد يتجهون إلى الشاطئ . طلبا للنجاة ..فلنلق إليهم حبل النجاة .. وقبل أن تذهب فرصة النجاة .. ثم لا تعود .

يقول تعالى فى سورة النحل : وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين وفى آية تالية يقول تعالى : وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا . لقد اتحد السؤال . واختلف الجواب . فمامعنى ذلك ؟

لأن القران كلام خالق الإنسان .. فإنه تعالى يعلم ما توسوس به نفسه . وأقدر على التعبير عما يستكن فى أعماق هذه النفس ..

والآيات المسئول عنها :

الآية الأولى : خطاب للكافرين : ماذا أنزل ربكم ؟

أى قولوا رأيكم بصراحة .. فى هذا الكتاب المنزل من عند من رباكم بنعمه سبحانه ؟

فكان جوابهم : أساطيرُ .. بالرفع .

ويعنى ذلك : أنهم لم يجيبوا عن السؤال ..

لقد أغمضوا عيونهم .. وعطلوا عقولهم .. فلم يوظفوها لتكتشف الحق .. وهو منهم قريب ..

ثم اختاروا الموقف الأسهل والذى لا يكلفهم عناء البحث والتنقيب .. وهو أن يعيبوا القرآن قائلين :

هو أساطير الأولين .

وفى الآية التالية نطالع جزاء هؤلاء المعاندين .

فهى ترفع الستار عن مشهدهم يوم القيامة .. لعلهم يراجعون أنفسهم ثم ليعودوا إلى ربهم وهم فى الدنيا ..

إن ذنوبهم التى يستصغرونها الآن .. سوف تتحول هناك إلى أحمال ثقيلة .. وسوف يحملونها .. كاملة غير منقوصة ..

وليس هذا فقط :

بل سوف يحملون من أوزار من أضلوهم ممن اغتروا بهم ..

ولاحظ أن الآية الكريمة لا تقول : [وأوزار الذين يضلونهم ..]

وإنما تقول : [ومن أوزار الذين يضلونهم]

ويعنى ذلك :

أن التابعين الذين اغتروا بهم واتبعوا أهواءهم .. سوف يتحملون جزءا من العقاب لأنهم فرطوا فى كرامتهم .. ولم يتحملوا مسئولياتهم .. وأهملوا النظر فى مواقف هؤلاء الأفاكين .. الذين تبجحوا مرة وقالوا عن القرآن :

(لو نشاء لقلنا مثل هذا ..)

ثم اليوم لا يقولون .. وإنما يهرفون بما لا يعرفون .. فيريحون أنفسهم قائلين : أساطير الأولين ..

وكان ذلك كافيا فى الدلاله على كذبهم .

أما فيما يتعلق بالمؤمنين :

فإنهم لم يتهربوا من الجواب كما تهرب الكافرون ..

وإنما قالوها كلمة باقية :

قالوا : خيرا..

يعنى : أنزل ربنا خيرا ..

فلما أحسنوا الجواب .. أحسن الله خاتمتهم ..

وذلك ماتشير إليه الآيه الكريمة :

﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾

وهو درس قرآنى يحمل الدارسين للقرآن مسئولية التعامل معه بحكمة .. وزاد من المعرفة .. والتذوق الأدبى .. سبيلا إلى فقه معانيه .. وإدراك مراميه .

ما هو الفرق بين الخطأ الفردى والخطأ الاجتماعى ؟

من صور الخطأ الفردى :

ذلك التلميذ الهارب من المدرسة .. فإنه بهروبه من واجبه سيرسب آخر العام جزاء إهماله .. وإذن فهو يضر نفسه ..

أما المدرس المهمل فسوف تتسع دائرة الضرر بعدد التلاميذ الذين خلفهم من ورائه .. محرومين من علمه..

ويساويه فى عمق الضرر واتساعه هذا المدخن :

فهو بالتدخين يضر نفسه .. ويضر الآخرين ..

من أجل ذلك كان حجم الخطأ الاجتماعى أكبر .. على قدر ما يحدثه من آثار.

وإذا كان الخطأ فى حق المجتمع أشد إيلاما .. فإن ذلك لايعفى من أخطأ فى حق نفسه من اللوم والحساب ..

لأنه إذا كان المجتمع بنيانا قائما .. وكان الفرد لبنة فى كيانه فإن ضعف اللبنة ضعف للبناء كله .. وسوف يحدث فيه شرخا يتسع مع الأيام ..

ومن أجل ذلك نرى الإسلام يرصد بواعث العمل داخل النفس الإنسانية .. حتى لا تتحول إلى سلوك مؤثر فى البناء الاجتماعى .. وقبل أن تكون عزما وتصميما :

وكان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن تجاوز عما لا يملك الإنسان دفعه من الهاجس .. والخاطر .. وحديث النفس .. ولا تنعقد محكمة الضمير إلا عند التصميم علي العمل .. وفى اللحظة التى تتهيأ فيها النفس للتنفيذ .

ومن وراء ذلك كله .. يظل خط العودة مفتوحا بالتوبة . لمن أراد أن يستأنف رحلة الطهر من جديد .. كما كان .. بل أحيانا .. أفضل مما كان .

وفى الوقت الذى يلاحق الإسلام فيه خواطر النفس الشريرة .. حتى لا تصير

عملا.. ثم يلاحق الخطأ الفردى قبل أن يكون ظاهرة ..

فى هذا الوقت .. نرى المذاهب الأخرى تدلل الإنسان على حساب الفضيلة ..

فالخطأ الأخلاقى الفردى .. معفو عنه .. لأنه - كما يزعمون -:

ممارسة للحرية الشخصية .. التى يجب أن تصان .. ولا تمس ..

أما إذا تجاوز السلوك الخاطئ الفرد .. ليقتحم رحمى المجتمع فإن العقاب يكون عندئذ واردا..

ويترتب علي ذلك بطبيعة الحال فساد عريض .. لأن المجتمع ماهو إلا مجموع الأفراد.. وهو جسم واحد فإذا قرض منه عضو سرت العلة بالعدوى إلى سائر الأعضاء..

لكن نظرة الإسلام الصارمة إلى الخطأ الفردى .. كنظرته إلى الخطأ فى حق المجتمع بسبب هذا الرباط العضوى بين الاثنين .. ولايظن أحد أن الإسلام بهذا التصدى لبوادر الانحراف .. قد سلب الإنسان حريته في ممارسه حياته .

بل إنه .. وباسم هذه الحرية .. واحتراماً لها يفعل ذلك حتى لا تتحول قيمة الحرية إلى فوضى .. تسمم جو المجتمع ..

الذى يختلط فيه الحابل بالنابل .. وتختفى الحدود الضابطة وتكون النتيجة غياب قيمة الحرية بالمرة.

مامعنى قوله صلى الله عليه وسلم : قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله ؟

يحرص الإسلام على أن يواصل الإنسان سيره إلى حيث يحقق آماله بلا عوائق

ومن مظاهر هذا الحرص :

تقديره لطبيعة النفس الإنسانية وما فيها من ضعف قد يحول بينها وبين تحقيق أمانيها:

من أجل ذلك .. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .. وعلى قدرما أتاح لها من إمكانات ..

كل ماهو مطلوب من الإنسان أن يبذل ما أتيح له من الجهد .. على قدرما أتيح له من الضوء .. فإن وصل .. فبها .. وإلا فهو معذور .. بل ومأجور ..

ومعنى قاربوا :

أجمعوا أمركم . وأحشدوا كل امكاناتكم .. ثم حاولوا الاقتراب مما أمرتم به.. ويقدر المستطاع ..

أماقوله : وسددوا .. فمعناه

احرصوا غاية الحرص على أن يكون سيركم وعملكم فى اتجاه الحق لكى تصيبوه ماأمكن ذلك ..

ويكفى الملاح فى البحر أن يفرد شراعه .. لاعلى ما تهوى الريح ليميل حيث تميل .. ولكن مهمته أن يتجه إلى الشاطئ الآمن .

مستدبرا كل جهة تناقض الحق ..

ولا عليه بعد ذلك أن ترمى به أقداره حيث لا يريد .

وقد يسأل سائل :

كيف ينفى الحديث دور العمل فى دخول الجنة .. مع أن الله تعالى يقول :

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ النحل ٩٧

والجواب :

يقول علماؤنا:

إن العمل ليس هو السبب الوحيد لدخول الجنة .. فهناك أسباب أخرى ..

أو أن العمل سبب لدخول الجنة ابتداء .. أما مراتب الناس فى الجنة ومنازلهم فهى بفضل الله تعالى وحده .. وليس للعمل دخل فيها وإذا كان الله تعالى يقول:

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فهذا هو العدل ..

أما الفضل فبابه واسع .. وقدره غير محدد .. ومهما ضاعف الإنسان من عمله .. فإن عمله أقل من أن يرشحه لكى يتبوأ من الجنة مكانا عليا ..

ويعجبنى هنا قول القائل :

لوبكى الإنسان .. حتى ابيضت عيناه .

لو . سجد .. حتى انخلع ظهره .. وحتى لو طعم التراب

ولو صار بالصوم .. خيطا ..

وتحول بالركوع قوسا ..

لو فعل هذا .. مادفع ثمن نعمة واحدة !

ومقصود الحديث الشريف :

تربية المسلم على التواضع ونسيان خط النفس .. وعدم الاعتداد بالطاعة اغترارا بها .. مراغمة للشيطان الذى يريد إفساد عمل المسلم حين يستكثر طاعته . ويستصغر ذنوبه ..

ومن مقتضيات الإيمان .. أن نرضى الرحمن .. ونخذل الشيطان .

انتظار الفرج

وتلك هى مواعيد الله تعالى فى كتاب المجيد .. ثم تأسست عليها سنة رسوله ﷺ

[يسروا ولا تعسروا . وبشروا ولا تنفروا]

لماذا ؟

لأن التيسير والتبشير يعنى : انتظار الفرج ..

وانتظار الفرج من أفضل العبادات :

ذلك بأنه :

أ- حسن ظن بالله تعالى .

ب- قطع الأمل كلية فى المخلوق .

حـ- ثم تمحيضه للخالق سبحانه

د- ويعنى ذلك كله : ترسيخ عقيدة التوحيد فى قلب المؤمن

ومن شفقته ﷺ بأمته ما ذكرته السنة عن بعض مواقف المحشر وكيف يقول : أصيحابى ..

يقول أصيحابى .. ولا يقول : أصحابى ..

فالتعبير بصيغة التصغير إظهارا لضعفهم ..

فهو ﷺ يتذلل إلى ربه .. مظهراً أمته فى أضعف حالاتها استنزالا لرحمته تعالى على قوم هم أحق بها وأهلها .

اتجاه الفكر الإسلامى :

وعلى هذا الأساس مضى الفكر الإسلامى ميسرا .. لا معسرا .. مبشرا .. لا منفرا ..

آملا فى رحمة الله تعالى ..

وهذا واحد من الصالحين الطامعين فى رحمته تعالى ومغفرته يناجى ربه قائلا:

اللهم :

إنا أطعناك فى أحب الأشياء إليك : التوحيد

ولم نعصك فى أبغض الأشياء إليك : الشرك

فاغفرلنا ما بين ذلك !

ونذكر أيضا ضراعة الرجل الصالح القائل :

اللهم إنا عصيناك .. لكننا نحب من أطاعك !

يعنى :

نأسف أشد الأسف .. لأننا عصيناك ربنا .. ولم يمنعنا حبك من معصيتك ..

لكننا نرجو كل الرجاء أن تغفرلنا .. لأننا نحب من أطاعك ..

فلم تذهب المعصية بحبنا أبدا ..

وهو تعبير عن حياء ربما يساقط منه لحم الوجه خجلا

على حد قول القائل

وتخجل من ملوحتها دموعى .:. إذا ذكرت فضائلك العذاب

وعلى هذا الأساس كان المخلصون من عباد الله يتعاملون بالفضل .. لا بالعدل .. حتى قال قائلهم .

كن نحلة .. ولا تكن عصفورا:

ذلك بأن العصفور يعود بزاده لأولاده .. أما النحلة فتفرز العسل .. ثم لا تدرى من أكله

أما بعد :

فيقول الله تعالى :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له تصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شئ مقيتا ﴾ النساء : ٨٥

ولعل الذين أنكروا الشفاعة أرادوا بها معنى " الوساطة "

وإذن فقضية الوساطة محسومة بهذه الآية الكريمة :

فمن يتوسط فى قضية يريد إحقاق الحق وإبطال الباطل ..

فذلك عمل مشكور مأجور ..

وإلا ... باء بالإثم العظيم

وقدروى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما .

[من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقدضاد الله عزوجل فى أمره](١)

وقد قال علماؤنا :

إن تنفيذ العقوبة يعنى :

١- استتباب الأمن

٢- ثم منع الظلم .

٣- وتأكيد الثقة بين أفراد الأمة.

وإذن .. فمن أراد الشفاعة لتخلية مجرم من العقاب .. أو التستر عليه .

فهو عدو لله تعالى . مضاد لحكمته فى عباده .. مستحق لعقاب الآخرة .

لأنه ضيع على الأمة الفوائد الآنفة ..

وإنها لخسارة فادحة يستحق بسببها أشد العقاب

(١) رواه الحاكم وصححه. وأبو داود والطبرانى بنحوه .

ماحكم المدح . والقيام للقادم ؟

هناك فى حياتنا : منطقة الظل .. ومنطقة شبه الظل .

كما أن هناك الصوت .. وهناك الصدى ..

الأول : أصل .. والثانى تابع ..

فإذا قلت لصاحبك مادحا :

أنت ذكى .. وأنت كريم .. أو عالم ..

جاز ذلك .. لأنه مدح إضافى .. نسبى ..

إنه شبه .. الظل .. وهو الصدى..

والممدوح على الحقيقة من وهبه تلك النعم .. فكان : ذكيا .. كريما .. عالما .. وهو الحق سبحانه وتعالى .. أما الإنسان فقد تجلت فيه صفات الحق سبحانه وتعالى ..

وربما كانت هناك شبهة قدرة الطبيب اليوم على التنبؤ بنوع الجنين وهو مازال فى بطن أمه .. فكيف يتم ذلك مع تفرده تعالى بالعلم هنا فى قوله تعالى :

﴿ الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾

ويكفى أن نقول هنا :

أولا : إن الحق تعالى يعلم نوع الجنين .. قبل أن يتخلق بالمرة .. وقبل أن يخلق الله تعالى الدنيا ..

فهل يدخل ذلك فى قدرة الطب الحديث ؟ طبعا لا .

ثانيا : ما يشاء الطبيب إلا أن يشاء الله تعالى .. الذى سلح الطبيب بالذكاء والخبرة .. فتحرك ولكن فى إطار من مشيئته سبحانه ..

وإذن فيجوز مدحه بالعلم ..فى هذه الإطار النسبى .. شريطة ألا نبالغ فى المدح الذى وضع ﷺ ضوابطه فى قوله :

﴿ لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ﴾

وفيما يتعلق بالقيام للقادم فهو القائل :

[لا تقوموا كما تقوم الأعاجم]

فالمدح جائز .. مع ملاحظة عدم مطابقته لمدح المغالين ..

والقيام كذلك جائز .. لكن لا على طريقة الأعاجم ومافيها من ابتذال لقيمة الإنسان . وتعريضه للهوان .. باغتصاب كرامته لتضاف إلى حساب الطاغين .

بدليل أنه أباحه على الطريقة الإسلامية لما قال للقوم : قوموا لسيدكم ..

وقد غابت هذه المعانى عن قوم فحرموا القيام جملة .. حتى سمعنا بمن يقول :

يحرم القيام للقادم .. لأن قيامك له .

كالسجود له .. فكلاهما من الصلاة !!

وقد علق الشيخ على الطنطاوى على ذلك بقوله :

ونسى أن القعود أحد أركان الصلاة أيضا .. فهل يحرم أن تجلس بين يدى أستاذك ؟!

وهذا الخلل .. هو أثرمن آثار التسرع فى فهم النصوص .. ورحم الله القائل :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها .·. دون الشيوخ .. ترى فى بعضها خللا .

ماهى التـوبة النصـــوح ؟

لا يفترض الإسلام أن يكون المسلم ملكا يمشى على الأرض ..

كما وأنه لا يقول له : إن الحياة بين يديك نهر من عسل مصفى .. أو من لبن لم يتغير طعمه ..

ولكن الإنسان : بشر : مخلوق من تراب .. وفيه من التراب ظلمته ..

ومن ثم .. فليس الشأن ألا تذنب .. ولكن الشأن ألا تقيم على الذنب ..

فتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون ..

على أن تكون التوبة نصوحا .. خالصة .. فى صحبة عزم قوى على استئناف الحياة على تقوى من الله ورضوان ..

فإن فعلتم .. كنتم على رجاء أن يغفر الله لكم خطاياكم مغفرة تنتهى بكم إلى جنات فيها من النعيم ما لا تتخيلونه :

غذاء شهى .. ومشاهد من الجمال .. منها تلك الأنهار التى تجرى بين أيديكم فى يوم .. هو عيد المسلمين الأكبر .

حين يخزى الله الكافرين .. ويسر المؤمنين بهذا النور الكاشف يسعى بين أيديهم .. وبأيمانهم .. والذين يطمعهم الغفران فى دعاء ربهم أن يتم عليهم نعمته ومغفرته .. لأنه على كل شئ قدير .

أما التوبة النصوح فهى ما اشترك فى إنشائها الكيان كله :

ذلك . بأن الإنسان عندما تسكره متعة الحرام يوما .. تكون جوارحه ..

وملكاته . كلها قد أخذت كفلا من هذه النشوة .. ومن العدل أن تحتشد كلها على طريق العودة إلى الله تعالى .. لتدفع الثمن كلها :

اللسان .. يستغفر

والجوارح .. تقلع

والقلب .. يندم

فإذا تعلقت المعصية بحق آدمى .. فلا تتم التوبة إلا برده ..

ومن أسرار التعبير بقوله تعالى : ﴿ عسى ربكم ﴾

ما تشير إليه « عسى » من واقعية الإسلام التى ألمحنا إليها فى صدر هذا الحديث .. والتى من مظاهرها :

ألا تسهل لك طريق العودة تسهيلا .. يصير فى حسك تدليلا .. قد تسترخى إرادتك .. ولكنها تقول لمن أراد التوبة :

اترك الذنب .. وفورا .. نادما عليه .. غير عائد إليه . شاعرا بأن الطريق صعب ..

وبذلك يستنفر السياق كل طاقات التائب حتى يفر إلى الله تعالى فرارا يصير الذنب به .. فى خير كان .

مامعنى قوله تعالى : يابنى آدم خذوا زينتكم ؟

الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يعين على فهمها :

والمفسرون يقولون فى سبب نزولها :

كان العرب يطوفون البيت عراة : الرجال بالنهار والنساء بالليل .

صادرين فى ذلك من منطق هش يقول :

حتى نتعرى عن الذنوب - كما تعرينا عن الثياب..

رافضين الطواف فى ثياب عصوا الله فيها ..

وكان بنو عامر : لا يأكلون فى أيام حجهم اللحم والدسم .. يعظمون بذلك حجهم..

وأوشك هذا الموقف أن يسرى إلى المسلمين بالعدوى .. حيث هموا بأن يقلدوهم فى ذلك ...

بل لقد حاول المسلمون أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك فقالوا :

فنحن أحق أن نفعل ذلك .. فنزلت الآية الكريمة تقطع عليهم الطريق :

آمرة بالتزين .. بمعنى : لبس مايستر العورة تماما .

لقد أخرج الله تعالى : من النبات : القطن والكتان .. ومن الحيوان : الحرير والصوف .. ومن المعادن : الدروع ..

فخذوا من النعم مايوارى سوءاتكم .. وريشا..

فلا بأس مع ستر العورة من الريش .. من التزين والتجمل ابتهاجا بنعمة الله سبحانه وتعالى :

على أن يكون ذلك شأنكم بصفة عامة ..

وبصفة خاصة عند كل مسجد .. عند كل صلاة ..

ثم.. بصفه أخص : عند صلاة الجمعة التى كان يومها عيدا لكم .

إنها زينتكم .. الخاصة بكم .. والتى تميزكم عن غيركم .. فخذوها .. ولا تسرفوا فيها حتى لا تكون تأنقا .. وتكلفا يرهق ميزانية البيت ..

ولا تسرفوا أيضا فى الطعام إلى حد التخمة ومضاعفاتها بالإفراط فى الطعام. أو التعدى إلى الحرام .

وإذ يقول تعالى هنا : يابنى آدم ..إشارة إلى أن التزين لولم يأمر به الإيمان .. لأمرت به الفطرة .. الآدمية .. تعبيرا عن بساطتها .. وعن جمالها .

والأمر بالتزين .. كالنهى عن الإسراف كلاهما سلاح المؤمنين فى معركة إثبات الذات .. لتظل شخصيتهم قوية .. متأبية على التبعية لغيرهم :

فإذا تعرى الأعداء .. وإذا وقفوا خلف بيوت الأزياء يصدرون إلينا بضاعتهم .. وإذا حرموا على أنفسهم ما أحل الله .. فلنرفض أن تكون منفعلين . لنظل فاعلين .. مستقلين .. أمة وسطا .. شاهدة على الناس .

كيف نحاسب أنفسنا ؟

تأخذ محاسبة النفس طريقين :

أولا : محاسبتها على ما كان منها فى الماضى .. وهو مايمكن تسميته بلغة العصر :

« صخيفة السوابق »

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بماتعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ الحشر ١٨-١٩

أما كيف يحاسب المرء نفسه هنا .. فبمثل قوله يسائلها :

حق الله تعالى على .. والذى أديته : هل كان كاملا .. أما كان ناقصا ؟

وهل كان هناك عمل خيرمنه .. آثرت غيره عليه ؟

وماذا عن حقوق الأرحام .. والإخوان والجيران ؟

ماذا أردت بكلمتى .. بأكلتى .. بخطوتى ..

أما الفاجر : فيمضى معصوب العينين .. مدفوعا بنفسه الأمارة بالسوء.. فى غمرته ساهيا .

ثانيا : وفى محاسبة النفس على المستقبل نقرأ قوله تعالى :

﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون﴾ البقرة ٢٨١

أى تخيروا من الأعمال ما ينفعكم فى هذا اليوم العصيب .. فروا إلى الله تعالى بمزيد من العمل يحقق الله تعالى به الأمل .

ولقد كان الأحنف بن قيس رضى الله تعالى عنه . وبين الحين والآخر يعرض نفسه على آى القرآن الكريم ليرى نفسه وعمله على مرآتها .. ليعدل من سلوكه .. ويضبط من خطوه ليكون منسجما معها .

أما كيفيه محاسبة النفس على المستقبل

فمن صورها .. وقبل البدء في العمل أن يتحسس نيته : هل هى أصيلة أم دخيلة ؟ ثم يمضى على بركة الله تعالى .

٣- **أما محاسبة النفس على الحاضر** .. وذلك يكون أثناء العمل .. أن يتساءل :

هل مازال ماضيا على السنة .. أم انحرف به المزاج والهوى ؟

وقد يطول الحساب .. ثم يكون العتاب .. فيندم القلب .. وتدمع العين ..

وإذا فرح القلب خلف الضلوع .. نديت العين بالدموع .

ونعوذ بالله تعالى من قلب لا يخشع وعين لا تدمع .

كيف يختار الفتى شريكة حياته ؟

عندما قال ﷺ [تنكح المرأة لأربع .. الحديث] .. فإنما كان يكشف عن واقع الراغبين فى الزواج .. وكيف تتجه آمالهم بهم ابتداء .. إلى الغنية أو الجميلة .. أو الحسيبة .. جاعلين المتدينة فى ذيل القائمة ..

الأمر الذى حدا به ﷺ إلى التحريض على الزواج من ذات الدين التى هى فى الواقع جوهرة ثمينة ينبغى أن يتنافس فيها المتنافسون

واختيار ذات الدين ابتداء ضمانة أكيدة من ضمانات النجاح فى تكوين الأسرة المستقرة .. المستمرة .

إن الذين يطلبون الزوجة للدنيا .. تغرقهم الدنيا ..

أما صاحب الدين حين يطلب صنوه فى التدين .. فإن ذلك يعنى وحدة الهدف.. وقبل ذلك شرف النوايا ..

وعندئذ فمن أى باب تهب الأعاصير .. وكلا الزوجين باسم التدين المشترك : وفى .. قانع .. مخلص ..

والوفى يحب الوفى .. والقانع يحب القانع ..

ومن وراء ذلك كله .. إخلاص يتوخى بالعمل رضوان الله .. لا مجرد إرضاء الطرف الآخر؟

ومع هذا .. وفوق هذا .. فالله تعالى هو من شئ المودة فى القلوب وجاعلها .. وكفى بها عروة وثقى .. لا انفصام لها ..

فإذا عثر الفتى المؤمن على الفتاة المؤمنة .. فقد استجمع الطرفان كل عناصر القرار ..

ومنذ الليله الأولى .. يبدأ الحب الحقيقى .. والذى يجئ ثمرة يانعة لحسن الاختيار .. وإن لم يحدث بينهما لقاء قبل ذلك ..

ليخرج هذا الحب من البوتقة ذهبا خالصا .. بعد العشرة المتقلبة بالزوجين بين : الرضا .. والغضب .. والسراء والضراء.

فإذا فرض وتراكمت مشكلات الحياة .. فإن غياب الحب عندئذ لا يشكل مانعا من استمرار العلاقة الزوجية .. بدافع من المروءة المشتقة من الدين .

بعد ذلك .. نتساءل :

كيف يتم الحب بين اثنين .. وقبل الزواج ؟

سيكون الأمر على ما يقول الشاعر :

نظرة .. فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء..

فلقاء فى خلوة يكون الشيطان فيها ثالث الطرفين .. واللذين يلتقيان فى جو مشحون بالانفعالات .. بالسحب المانعة من رؤية الحقيقة ..

وقد يخدعنا الجمال الأخاذ .. والمنطق المزوق .. بينما الأعماق هناك طافحة بالعيوب .. التى لا تكشفها إلا الخبرة ممثلة فى الوالدين اللذين يتحملان مع البنت نتائج الاختيار .. بدل أن تتحمله هى وحدها لو تفردت بالقرار .

ماهو الحل إذن :

الحل : أن تأخذ الأسرة دورها فى البحث والتنقيب ..

والترشيد .. هكذا فى نقطة الضوء..

فإذا جاء صاحب الدين رزقا حلالا .. فلنفتح له صدورنا ..

ثم تبقى النتائج بعد ذلك على الله تعالى .. والذى سيجعل من الإخلاص فى الاختيار سبيلا إلى مانريد من سعادة .. يظفر بها .. من ظفر بذات الدين .

كيف نفهم الآية الكريمة فهما صحيحا؟

لا نفهم الآية الكريمة .. مستقلة.. منزوعة من سياقها .. وإنما لابد من فهمها ضمن الإطار العام الذى ترسمه الآيات الكريمة قبلها ..

وبعدها .. من حيث الاتصال العضوى بين مجموعة الآيات التى تستهدف غرضا واحدا كذلك : مما يعين على فهم أوثق وأعمق : الإحاطة بسبب نزول الآيات الكريمة .. فإن ذلك مما يجلى للباحث كل جوانبها .. لأن ذلك رجوع إلى الجذور التاريخية .. التى نستوعبها .. ثم ننطلق منها على بينة من أصولها الأولى .

ومن هذه الفوائد : فهم مرامى الآيات . ومعانيها :

من مثل قوله تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ البقرة ١١٥

فظاهر الآية الكريمة يوحى بجواز الصلاة لأية جهة من الجهات مطلقا .

لكن سبب النزول وضح المراد . فالآية الكريمة نزلت فيمن اجتهد فى تحديد القبلة . ثم تبين من بعد خطؤه .. فلا شئ عليه .

وفى مثل قوله تعالى ﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ ١٨٨ آل عمران

قال مروان بن الحكم لما سمع الآية الكريمة : « لو كان الأمر كذلك .. لجوزينا كلنا .. » لكن سبب النزول بين أنها فى طائفة من أهل الكتاب :

سئلوا عن شئ . فأجابوا خطأ .. عامدين . ومع ذلك طلبوا أن يحمدوا .. وبما لم يفعلوا .. فتوعدهم تعالى بالعذاب.

ومن الفوائد أيضا : « دفع التوهم » :

فى مثل قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم .. ﴾ الآيه ٣ من سورة المائدة .

فقد يتوهم السامع أن المراد من الآية الكريمة : حصر المحرمات ..مع أنها أكثر من ذلك ..

فلما عرف سبب النزول تبين أنها ليست للحصر وإنما هى عناء ومضادة

للمشركين .. وهو الجواب المناسب لحال المشركين المعاندين .. جزاء من جنس العمل.. كمن يقول لك : لا تأكل اليوم حلوا .. فتقول له معاندا : لن آكل اليوم : إلا حلوا !! فأنت لا تريد الحصر وإنما هي : المضادة والمعاندة .

ومن الفوائد أيضا :

تصحيح الأحكام

فقد ظن مروان بن الحكم أن المقصود بقوله تعالى ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما .. ﴾[1] ظن أنه عبدالرحمن بن أبى بكر فأقسمت عائشة رضى الله عنها أنه شخص آخر .. ولوشاءت لسمته [ولم تسمه]

ثم قالت : وما نزل فى آل أبى بكر إلا مانزل فى « **الإفك** »

وفيما يتعلق بالحديث الشريف فالأمر كذلك وهناك كتب تكفلت بذلك . ومنها كتاب :

« البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف »

---

(١) الأحقاف ١٣.

هل يتحمل الحكمان الموكلان بالإصلاح مسئولية الصلح بين الزوجين وحدهما ؟

الخلاف بين الزوجين أمر وارد .. ولقد حرص الإسلام على تلافى هذا الخلاف قبل حدوثه طبق قاعدته القائلة : الوقاية خير من العلاج ..

لكنه إذا بدت بوادره .. فلابد من علاجه من لدن الزوجين فقط .. أو أفراد الأسرة تحت سقف البيت .. فإذا صعدت المعركة .. ولم تغن فيها هذه الجهود الفردية.. كان لابد من انتداب حكم يمثل أهل الزوج .. وحكم يمثل أهل الزوجة .. من حيث كانا أدرى الناس بالأسرار .. وأحرصهم على الود الغائب لينشر ظلاله من جديد .. يجتمعان حول مائدة المفاوضات فى محاولة لرأب الصدع .. وتضييق شقة الخلاف بين الزوجين ..

وسوف تتوج هذه المفاوضات فى النهاية بالتوفيق المراد .. متى توفرت النوايا الطيبة من كلا الطرفين ..

وإذ يكثر الادعاء فى مثل هذه الظروف .. من حيث تأكيد كل طرف أنه لا يقصد إلا الإصلاح .. وقد يضمر فى قلبه رغبة فى الإيذاء .. لكنه يخفيها .. ولا يبديها فى محاولة لتهيئة الظروف التى يحقق بها ما يريد على حساب مصلحة الطرف الآخر ..

إذا كان الأمر كذلك فإن الله تعالى يختم الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ إن الله كان عليما خبيرا ﴾

ومن الظلم بمكان أن نرجع الضمير فى قوله تعالى ﴿ **إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما** .. ﴾ من الظلم إعادته للحكمين وحدهما .. حتى يتحملا دون بقية الأهل مسئولية الإصلاح .. فقد يذهب الحكمان وفى قلب كل منهما عزم أكيد على تصفية الجو ..

أولاً : طاعة لله تعالى .. حيث أمرهما بالإصلاح .

وثانياً : حفاظا على شخصيتهما أن تهتز .. لو فشلت المحاولة .. إلى جانب ما يحققه التوفيق من تنويه بهما .. ودعاية طيبة لهما ..

ولكن الذى يحدث أن أهل الزوج وأهل الزوجة : أحدهما أو كليهما .. يجلس فى حجرة العمليات يخطط .. ويدبر .. فى محاولة لكسب الوقت .. وتوجيه الأحداث إلى نهاية تحميه من الخسائر .. أو تقلل على الأقل منها ..

وكم طويت القلوب على قرار الطلاق .. وكان الظن أن يتوفر لصاحب هذا القرار قدر كاف من الشجاعة الأدبية يحسم بها القضية .. حسما يوفر أعصاب الحكمين التى تحترق .. بغيا وعدوا ..

فليعد الضمير على الأهل .. والحكمين جميعا ..

وأحرى به أهل .. نام لديهم الضمير الذى استتر وجوبا كما يقول علماء النحو!!

فى القرآن الكريم : تتقدم بعض الكلمات على بعض مثل الغفور على الرحيم، فما دلالة ذلك ؟

أجاب ابن القيم رحمه الله تعالى عن ذلك بما معناه :

أن الله تعالى يقدم «الغفور» على «الرحيم» أحيانا : لأن المغفرة سلامة . والرحمة غنيمة . والسلامة تطلب قبل الغنيمة.

ونزيد نحن ما قرأناه : من أن رجلا قال لشيخه : أأستغفر أولا .. أم أسبح..؟ فقال له : الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور .. يعنى الاستغفار أولا .. تخلية للنفس من الذنوب .. ثم يجئ التسبيح بعد ذلك فى زمانه المناسب.

أما فيما يتعلق بتقديم الرحمة فى مثل قوله تعالى ﴿وهو الرحيم الغفور﴾[١]

فذلك : لأن الرحمة تعم كل الخلائق .. أما المغفرة فهى خاصة بمن يستأهلها من بنى الإنسان .. فالرحمة عامة .. والمغفرة خاصة .. ومنهج القرآن تقديم العموم .. على الخصوص .. هنا .. وفى مثل قوله تعالى: ﴿وملائكته ورسله وجبريل ..﴾

أما موقفنا من العاصى .. فيحدده موقف العاصى نفسه :

فالعاصى يخطئ أولا .. فى حق خالقه سبحانه وتعالى .. فلنترك له فرصة يراجع فيها نفسه .. بلا لوم ولا تثريب ..

فإذا تاب .. فالله تعالى يحبه بلطفه وكرمه . لأنه تعالى يحب التوابين .. ويحب المتطهرين . بل إنه تعالى ليفرح بتوبة عبده غاية الفرح .. فلماذا يظل البعض واقفا بالمرصاد للعصاة .. يمسك «بالدفاتر القديمة» كهذا التاجر المفلس ؟!

كيف تسمح له نفسه أن يكون كالغريم يلاحق العصاة بالتأثيم .. مع أنه تعالى قد غفرها بالتوبة النصوح .. بل أحب من تاب إليه .. بل وفرح بعودته إليه..

---

(١) سبأ٢

هل نحن كما يقولون : ملكيون .. أكثر من الملك ؟! هل نحن أغير على الدعوة من منزلها سبحانه وتعالى ؟!!

إن العاصى رفيق .. على الطريق .. هرب منا .. وسار مع الشيطان فى الأرض حيران ..

فلماذا لا نحاول رجعه إلينا ليكون .. كما كان .. معنا ؟

لماذا ننفره من العودة .. مصرين على التغنى بذنوب تاب منها فعلا ؟!

فلتكن عودته عيدا لنا .. عيدا يعود فيه الغريب إلى أهله ..

عيداً .. يحس فيه متعة الوجدان !!

ماذا عن خيط العنكبوت ؟

قـرأتُ مـا قـرأتَ .. وأن خـيط العنكبـوت أقـوى أيضـا من خـيط مـثلـه من «النايلون»

ومن خصائصه أنه : لا يصدأ .. ولا ينقطع أبدا .

لدرجـة أنه لو كـان خـيط من المادة التي تفرز خـيط العنكبـوت قطره عـشـرة مليمترات . فإنه لو اعترض طائرة نفاثة وفى أقصى سرعتها .. فإنه لا ينقطع !!

ومع هذا .. فبيتُ العنكبوت .. أضعف البيوت .. لو كان الناس يعلمون .. **وقد علم الفاقهون من الناس :**

أن خيط العنكبوت وإن كان فى ذاته على غاية ما تكون القوة .. لكن الوهن اللاحق بالبيت المكون منه راجع إلى اختلال النسب فى هذا البيت :

وأنت تعرف من مبادئ هندسة البيوت ضرورة أن يكون هناك توازن وتناسب بين الجدارن ومكوناتها .. وإلا .. كان الانهيار .. وهذه ناحية فنية ..

ومن الناحية الاجتماعية .. فقد قرر العلماء البصراء بمملكة الحشرات كيف أن أنثى العنكبوت تلتهم الذكر فى مرحلة من مراحل تكون الأسرة .. لتبقى هى سيدة البيت .. وأنت خبير بمضاعفات هذا الخلل فى إدارة المؤسسة المنزلية .. حين يستنوق الجمل .. بل حين لا يكون هناك جمل بالمرة !

والعرب لا ترئس الأنثى .. كما وأنها لا تؤنث الرأس !!

ولك أن تتخيل فى واقع حياتنا اليوم قرية غنية بأبنائها الأبرار الأخيار .. لكن الأنانية فرقتهم فلم تفد القرية من مواهبهم وبرهم بعد العزلة التى جعلت منهم جزرا متباعدة !!

وتفرض علينا مثل هذه الإشارات العلمية فى القرآن الكريم .. تطوير وسائل الدعوة .. حتى نتمكن من مخاطبة الطبقات المثقفة .. وبخاصة فى بلاد لا تدين بالإسلام .. فى عصر صار الأسلوب العلمى أنسب الأساليب فى إقناع ناس لا يؤمنون بالكتاب الكريم ولا بالسنة المطهرة.

وحبذا لو توجه شباب الكليات العملية هذه الوجهة الإيجابية .. - تحت إشراف الأساتذة طبعا - ولو قد فعلوا لقدموا للدعوة خدمات جليلة .. فى زمان تدعو كل أمة إلى كتابها ..

وكل حزب بما لديهم فرحون

نرجو تلخيص معانى سورة الكوثر

قيل فى معنى الكوثر :

إنه : اسم لنهر فى الجنة .

أو المراد به : الخير الكثير .

روى ابن كثير عن أنس بن مالك قال :

(أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة . فرفع رأسه مبتسما . إما قال لهم . وإما قالوا له :

لم ضحكت ؟

فقال رسول الله ﷺ :

إنه نزلت على آنفا سورة . فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر . حتى ختمها.

فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة . عليه خير كثير .. ترد عليه أمتى يوم القيامة . آنيته عدد الكواكب . يختلج العبد منهم - يضطرب - فأقول يارب : إنه من أمتى. فيقال :

إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك) .

ويمكننا بعد ذلك أن نقول جمعا بين الرأيين :

إن الحق تعالى يمن على رسوله ﷺ بما أنعم عليه من نعم كثيرة . لو حاول العادون حصرها .. ما أحصوها .. وفى طليعة هذه النعم ذلك النهر المبارك.

وجاء قوله تعالى عقب ذلك ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ :

بيانا لشكر هذه النعمة بالصلاة الخالصة والنحر ..

ليتضح الفرق الكبير بين حال المنافقين الذين تحدثت عنهم سورة الماعون السابقة على سورة الكوثر : بالسهو عن الصلاة . والرياء فى العمل . أما الرسول والمؤمنون معه فكما قال سبحانه :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾

ومن كان كذلك فهو المبارك دائم العطاء .. وتهمة : أنه ﷺ : أبتر .. أى : لا عقب له مردودة على من قالها من أعدائه.

بقى أن ننبه السائل الراغب فى العلم إلى **إشارة علمية** يمكن أن تكون أجدى فى الدعوة إلى الله تعالى وخاصة فى التجمعات الأجنبية وهى : اتفق الفقهاء على أن النحر للإبل . والذبح للغنم .. والبقر متردد فيه بين النحر والذبح .

والحكمة فى تخصيص الإبل بالنحر هو : طول العنق .. إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيدا . فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر.[(١)]

بخلاف النحر فى المنحر . فإنه يقرب المسافة . ويساعد القلب على دفع الدم كله . فلا تبقى منه بقية تجعل من لحم الذبيحة سما قاتلا . وسبحان من هذا كلامه.

فلتبق الشخصية المسلمة دائمة العطاء بقيمها الأصيلة :

تصلى ..

وتصلى لله تعالى ..

ثم لتنحر .. وتأكل .. وتهدى .. وتتصدق .. فى تعاون على البر والتقوى .. ثم لتنحر طوابير المنافقين الفاحشين المتفحشين ..

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان.

تأملات فى سورة الصافات

يقول تعالى فى سورة الصافات :

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب .. فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾

وقد وردت الآيات الكريمة فى معرض الاستدلال على وحدانية الله سبحانه وتعالى. والتى شهد بحقيقتها ذلك الكون الناطق بها . والدال عليها .

ومن بين هذه الدلائل ما نشاهد من الكواكب كأنها الجواهر المشرقة المتلألئة على سطح السماء الأزرق المنبسط .. بأشكال مختلفة . زينة وجمالا .

وإلى جانب كونها زينة للسماء الدنيا . فقد جعل الله لها وظيفة أخرى هى : حفظ السماء من كل شيطان متمرد خارج عن طاعة ربه سبحانه .

قال ابن عباس :

(كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات . وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها. فيلقونها على الكهنة.

فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات . فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها . فما منهم أحد يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب . وهو الشعلة من النار فلا يخطئه أبدا)[١].

فإذا أرادوا الصعود إلى الملأ الأعلى لاستراق السمع قذفوا من كل جانب من جوانب السماء بالشهب مدحورين مطرودين . إلى جانب ما أعد الله لهم فى الآخرة من عذاب واصب أى دائم.

---

(١) حاشية الجمل.

ومع هذه الحراسة المشددة . فقد يحدث - في إطار من مشيئته سبحانه وتعالى - أن يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور فى عالم الملائكة .. وسرعان ما يتبعه شهاب ثاقب أى مضئ كأنه يثقب الجو بضوئه . فيميته . فيضل سعيه .

وليست الشهب التى يرمى بها الشياطين من الكواكب الثوابت . لأن الثابتة تجرى ولا ترى حركاتها . وهذه الشهب ترى حركاتها.

لما كان القوم منكرين للبعث وإعادة الأجساد كما كانت .. فقد واجههم السياق بهذا السؤال المسكت :

اسألهم يا محمد : أيهم أقوى بنية .. وأشد خلقا: هم .. أم السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات العظيمة العجيبة ؟

ألا إن الذى خلق هذه الكائنات الهائلة لقادر على أن يبعثكم تارة أخرى .. فأنتم ضعفاء فى أصل خلقتكم التى كانت من طين رخو لزج يلصق باليد .. ولا قوة فيه .. ثم صار من بعد بشرا سويا ..

ومن بدأ خلقكم من طين قادر على بعثكم .. وهو أهون عليه .

الآية المطلوب تفسيرها : من سورة البقرة . وهى :

﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ﴾[١]

المعانى الصرفة إنما يدركها العقل وحده .

لكن طبيعة النفس : الميل إلى المحسوس ومحاكاته ..

من أجل ذلك شاعت الأمثال فى الكتب الإلهية وفى الأدب العربى .

لأن ذلك يساعد على كشف المعنى . وإبرازه فى صورة المحسوس .

وجاء فى كلام العرب :

أطيش من فراشه . وأعز من مخ البعوض .

ولما كان القرآن الكريم فى أعلى مستويات البلاغة .. كان ضرب الأمثال وسيلة تبليغ بالمعانى إلى قرار النفوس ..

ولذلك - وقبل هذه الآية من سورة البقرة - مثل حال المنافقين بحال من استوقد نارا .. إلى غير ذلك مما يبرز منهج القرآن فى هداية البشر ..

ولكن اليهود قادوا حملة من التشكيك قائلين :

الله تعالى أعلى وأجل من أن يضرب الأمثال ويذكر الذباب والعنكبوت .. وتجاهلوا بذلك ما سبق تقريره فى الإنجيل واستعمالات العرب ..

فجاء الرد الإلهى :

---

(١) البقرة : ٢٦ .

﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . ﴾ والمعنى:

أنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيى أن يمثل بها لحقارتها .. بل يضرب المثل بها وبما هو أكبر منها أو أحقر .

هذه حقيقة مقررة .

لكن المهم هو اختلاف استجابة الناس :

فالمؤمنون يعلمون أن الله حق .. ولا يقول إلا الحق .. آمنا به كل من عند ربنا ..

وأما الكافرون : فيتساءلون متعجبين :

ماذا أراد الله بضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة ؟

وندرك هنا : كيف يملك الإنسان مصيره .. وكيف يخط بإرادته مستقبله :

فالمؤمنون الذين قرروا السير فى طريق الهدى ..زادهم الله هدى وآتاهم تقواهم..

والكافرون الذين أداروا ظهورهم للحق ضلوا .. فأضلهم الله سبحانه ..

وما يضل الله تعالى إلا من فسق .. أى خرج باختياره عن الخط المستقيم ..

وكل إناء بالذى فيه ينضح ..

هى شجرة الزقوم .. ولعنها في القرآن لعن طاعميها من الكفار .

والله أعلم .

﴿ ما معنى قوله تعالى { وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1]

إذا كانت آيات الأرض بأطرافها . وأكنافها من الوفرة بحيث لا تعد أصنافها..

فإن فى أنفسنا من الآيات ما يحتاج إلى مزيد من الاستبصار وصولا إلى آيات بينات شاهدات بعظمة الخالق سبحانه .

وأعجب ما على ظهر هذه الأرض هو هذا الإنسان - وكما قالوا - :

إنه عجيب .. فى تكوينه الجسمانى .

عجيب .. فى تكوينه الروحى .

عجيب .. فى تكوينه النفسى ..

وإذ يشغل الإنسان حيزا ضئيلا من الكون .. لكنه عالم حافل بالأسرار .. وكل ما فيه من الأسرار يغرى :

وتزعم أنك جرم صغير ∴ وفيك انطوى العالم الأكبر!

وتركيب الآية الكريمة إنما هو تحريض دائم للإنسان كى يسبر غور نفسه ليقف على بعض أسرارها :

ففيها آيات .. فيها .. فى أعماقها ..

ثم هى فى أنفسكم .. أنفسكم أنتم .. وعلم الإنسان بما فى نفسه أتم وأيسر .. لأنها بين يديه ..

أفلا تبصرون .. أفلا تفتحون أبصاركم .. ما الذى يمنعكم من مشاهدة ما يتراءى بين أيديكم وتحت أبصاركم ؟

---

(١) الذاريات الآية ٢١ .

من عجائبها :

أن آياتها البينات ..تناديكم .. تناشدكم أن تستوعبوها وصولا إلى تقرير عظمة باريها سبحانه :

هذه الأعضاء .. كيف تؤدى وظائفها ؟!

عملية الهضم .. والامتصاص .. التنفس والاحتراق ..

وقبل ذلك : خلية واحدة تحمل خصائص الجنس البشرى ؟ بينمالا تراها العين المجردة ..

وهذا الكبد ذلك المصنع الإلهى العجيب :

ثم هذا الوليد كيف يستأنف حياته على الأرض .. بعد فراق رحم أمه ..

عملية النطق : هواء يسرى .. ليمتد حروفا .. وكلمات . لها معنى ..

هذا الإنسان يمثل عالما قائما بذاته .. لا ترى الأبصار من عجائبه إلا القليل .. إلا الجزء البادى من جبل الجليد .. وهناك فى الأعماق ما هو أعظم ..

وفى كل يوم تدرك الإسانية جديداً ..

وما تزال الآية الكريمة تحرض الموكب البشرى على التأمّل قائمة :﴿ وفى أنفسكم .. أفلا تبصرون ﴾

فهل نحن فاعلون ؟

نرجو إلقاء الضوء على :

البدعة - المصالح المرسلة - حكم بناء المساجد المتجاورة ؟

البـدعـة

[طريقة فى الدين مخترعة . تضاهى الشريعة . يقصد بها : المبالغة فى التعبد لله تعالى]

قوله .. فى الدين .. يعنى :

أنها فيه تخترع . وإليه تضاف .

بخلاف ما يخترع فى الدنيا

ويعنى قوله « مخترعة » أنه لا أصل لها فى الدين .

بخلاف كل العلوم الخادمة للشريعة : فلها أصل . وليست بدعة .

وإن لم تكن في الزمن الأول .

مثال :

النحو . والصرف . والفقه وأصوله . وكل ما يخدم الشريعة .

قوله « تضاهى الشريعة » :

تشابهها . من غير أن تكون شريعة فى الحقيقة . مثل :

صيام يوم نصف شعبان : فهو شرعى . لكن لا فى هذا اليوم .

فالمبتدع يلجأ للمشابهة تلبيسا على الناس . وإلا لو خرج بها عن المضاهاة . لم يسلم له غرضه .

وهذا جهل من المبتدع :

لأن الله تعالى هو الخالق الرازق .

فهو المشرع ..

وهو العليم : فتشريعه كاف شاف .

وهو سبحانه : الحكيم .. فهو أدرى بمصلحة الإنسان .

وكل المخترعات الحديثة ليست بدعة .. إلا إذا اصطدمت بأصل دينى .

المصالح المرسلة

أمور تعرض على العقول : فتتلقاها بالقبول . مثل :

١- حبس المتهم .

٢- وضربه .

٣- وتغريم الصانع . حتى لا يتباطأ الصناع .

مساجد الضرار

أفتى « العثيمين » فى ١٤١٨/١١/٢ بما يلى :

إن بناء مسجد قريبا من مسجد هو مسجد ضرار

ثم ناشد الحكومة أن تمنع ذلك !

ذلك بأنه مفرق للجماعة ..

وأسميه أنا « مسجد ملاكى » !!

وقد نصحت المرأة التى تريد بناء مسجد بجوار مسجد آخر بأن تبنى عشا لعروسين .. يوشك ، باطهما أن ينفصم .. لأنهما لا يجدان مسكنا !!

هل يجوز للقاضى أن يطلب
من أحد الخصمين التنازل عن بعض حقه ؟

نعم يجوز :

وهذا واحد من دروس القرآن الكريم :

فالله سبحانه وتعالى .. يأمر بالعدل .. والإحسان ..

ويعنى الإحسان التجاوز عن الحق كله .. أو بعضه .

مع ملاحظة واقعية القرآن :

لأنه « يأمر » بالعدل الذى هو فى مقدور كل مكلف .

أما فيما يتعلق بالإحسان .. فإنه تعالى .. لا يأمر به أمرا صريحا كأمره سبحانه بالعدل .. لأنه تكليف صعب لا يقدر عليه كل أحد .

ومن أجل ذلك ترك لاختيار الإنسان .. كل حسب طاقته .

أصعب سؤال !!

كان أصعب سؤال تلقاه الإمام مالك رضى الله عنه :

يا أبا عبد الله :

الرحمن على العرش استوى .. كيف ؟

فأطرق -رحمه الله- إلى الأرض . وجعل ينكثها بعود .

ثم علته الرقضاء (العرق)

ثم أجاب قائلا :

الاستواء معلوم

والكيف مجهول

والإيمان به واجب

والسؤال عنه بدعة !

ولم يكتف الإمام بذلك .. بل أراد أن يجعل من هذا المبتدع عبرة

فقال له :

وأظنك صاحب بدعة !

ثم قال لتلاميذه : أخرجوه !!

أما أصعب سؤال فى حياتى فكان هو :

المسيحى المقتول فى حرب رمضان : شهيد أم لا ؟!

وكان الجواب :

إن كان السائل مسلما .. فهو يعرف الجواب

وإن كان غير مسلم .. فليسأل معلمه !!

وبهت الذى سأل !!

تفريج الأقدام فى الصلاة

قال صلى الله عليه وسلم :

[أقيموا الصفوف .. وحاذوا بين المناكب .. وسدوا الخلل .

ولينوا بأيدى إخوانكم .

ولا تذروا فرجات للشياطين .

ومن وصل صفا . وصله الله .

ومن قطع صفا . قطعه الله][1]

وفى رواية :

[رصوا صفوفكم . وقاربوا بينها . وحاذوا بالأعناق .

فو الذى نفسى بيده إنى لأرى الشياطين تدخل من خلل الصفوف كأنها صغار الغنم][2]

قال د. محمد سعاد جلال تعليقا على الحديثين :

وإذن : فمن يوسع بين قدميه :

١- مخالف للمشروع الذى هو مقدار شبر . أو أربعة أصابع لا يزيد عنهما

٢- والشيطان يقف بين رجليه .

٣- ثم هو يؤذى جيرانه

---

(١)أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه

(٢)أخرجه أبو داود والبيهقى والنسائي

قلت لعامل « السنترال» المصر على ختم الصلاة بالمسجد .. والناس على الباب غائظون : قلت له :

يكفيك صلاة الفريضة .. فمن أم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة ..

وفى طلاب المكالمات الهاتفية كذلك !!

هل يجوز التبرك بآثار الصالحين ؟

عندما نزل صلى الله عليه وسلم وصحبه الحجر من ديار ثمود .. أمرهم بأن يهريقوا الماء . ويقدموا العجين للإبل .. ثم قال لهم :

استقوا من بئر الناقة .

يقول العثيمين :

وهذا تبرك بآثار الصالحين .

وقد سئل الشيخ مرة عن رؤيا .. فقال لمن رآها :

أحسن أمورك فى يقظتك .. لا يضرك ما تراه .

وإذا أحدث الله لك علما .. فأحدث له عبادة .

هل يجوز إخرج الزكاة قبل الحول؟

اختلف العلماء فى جواز ذلك .

فمن قال : إن الزكاة عبادة .. منع إخراجها قبل الحول . لأنها مادامت عبادة فهى موقوتة بزمن .. كالصلاة .

ومن رأى أنها حق الفقير .. أجاز ذلك .

ونقول :

يمكن إخراج جزء من الزكاة قبل انقضاء الحول .. وذلك فى الحالات الإنسانية الحرجة ..

وقد كنت أتفادى توزيع الزكاة فى شهر رمضان بالذات :

فإما قبله .. وإما بعده ..

ذلك بأن العادة جرت بتوزيعها فى شهر رمضان توسعة على الفقراء .

لكن ناسا من الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .. قد يجرح شعورهم أن تعطيهم فى رمضان ..

وأليق بهم أن يعطوا - وبالطريقة التى تليق بهم - فى أشهر أخرى .. يختفى فيها الإحساس بمعنى « الصدقة » ويحل محله الشعور بمعنى الصداقة !

المسيح الدجال

١- اسمه مشتق من الدجل . وهو : الكذب والتمويه .

٢- يبعثه الله تعالى آخر الزمان . يدعى الألوهية

فيمكث فى فتنته بالأرض أربعين يوما .

يوم كسنة .

ويوم كشهر .

ويوم كأسبوع .

ثم تكون بقية أيامه عادية

يعطيه الله تعالى قدرة :

يأمر المطر فينزل ..

والأرض فتنبت ..

ناره : جنة .

وجنته : نار .

مكتوب بين عينيه : كافر

يقرؤها كل مسلم : العالم والأمى .

ولا يقرؤها الكافر ولا المنافق

ثم ينزل عليه عيسى عليه السلام . فيقتله بفلسطين .

نقـــل الــــدم

هل يحرم الزواج بنقل الدم ؟

هناك فرق بين الدم .. وبين اللبن الذى يحرم به الزواج ..

فاللبن : غذاء .

أما الدم : فهو ناقل للغذاء .. وليس غذاء .

ولذلك لا يحرم الزواج بنقل الدم .

سؤال ذو شقين :

ما حكم من قتل نفسا معاهدة .. بغير حق ؟ وما ضبط « ولم يرح رائحة الجنة » ؟

يقتل المسلم .. بالذمى .

ودية الذمى كدية المسلم .

أما قوله فى الحديث الشريف « لم يرح » وكيف نضبطها ؟

فهى من : راح يراح .. فالمضارع : لم يرح ..

أو من راح يريح : فالمضارع : لم يرح ..

وإذا كانت من « أراح » فالمضارع : لم يرح ..

ذكـــاة الجنـــين

لو ذبحت البقرة مثلا .. فهل ذكاتها تكون ذكاة لولدها فى بطنها ؟

منع أبو حنيفة .. للعموم [حرمت عليكم ..]

وفى حديث الإباحة قال صلى الله عليه وسلم :

إن شئتم ..

والتعبير بإن .. لما فى النفوس من نفور عن أكله .

وأجاز أحمد ومالك أن تكون ذكاة الأم ذكاة للولد ..

والخاص مقدم فى الاحتجاج على العام

ولاحظ أن محمدا وأبا يوسف - وهما صاحبا أبى حنيفة -

يخالفانه فى التحريم . ويؤيدان رأى مالك وأحمد .

وهكذا تكون حرية البحث ..

وهكذا تكون التربية :

فالطلاب ليسوا نسخة مكررة من أستاذهم ..

وإنما لهم رأى المستقل . ونظرتهم المتميزة ..

وما أسعد الأستاذ بطلاب يكونون من بعده امتدادا له .. وعمرا ثانيا يعيشه.. وإن كان تحت الثرى !

محاضرة فى جامعة إقليمية

فى محاضرة بجامعة إقليمية .. وبعد مذبحة الأقصر بأيام قليلة .. دارت كل الأسئلة عن القدس .. وكيف نحررها ..

ولم يسأل طالب واحد هذا السؤال : ماذا عما حدث فى الأقصر ؟؟

لقد كانت القدس فى بؤرة الشعور .. وهذا حق ..

ولكن لماذا اختفى شبح جريمة الأقصر .. وما زالت الدماء تخضب الرمال العفراء ؟!!

بادئ ذى بدء :

الحماس ظاهرة صحية أليق بشباب فى فترة يحاول الإنسان فيها إثبات ذاته..

إلى جانب أن للحماس ما يسوغه :

١- على المستوى العالمى :

هناك مؤامرة عالمية على الإسلام تريد :

حصره فى المكان : .. فى المسجد

ثم فى الزمان : فى الأعياد والمواسم .

يعنى تجريد الإسلام من فعاليته .. ليتكفل المتآمرون بإدارة دفة العالم .

٢- اليهود يخططون .. ومعركتهم دينية .. وليست فقط قومية ..

وهم بهذا المعنى يغرون اليهود فى العالم عن طريق العاطفة الدينية أن يتبرعوا.. ويسخاء [1] .. ثم كان من خطتهم :

---

(١) ولا تنس المرارة التى استقرت فى نفوسنا حين قرر المتآمرون زرع إسرائيل فى أرضنا : فأعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق .. واستطاع الاثنان : من لا يملك .. ومن لا يستحق سلب الحق الشرعى من أهله بالقوة .

[تصدير الاستهتار : فى الحرب العالمية الثانية : لم يضرب الحلفاء مدارس الرقص .. وقدموا الهدايا لراقصات المستقبل]

٣- على المستوى المحلى :

فى الإعلام تجاوزات ..

البطالة ..

وإذن فنحن محتاجون للحماس .. فى مواجهة هذا البرود فى مواجهة انتهاك الحرمات ..

ومعنى ذلك :

أن حماس الشباب مشتق من واقع يرونه .. ولا يشك عاقل فى ضرورة تغييره .

المراجعة .. لا التراجع

وليس بالحماس وحده تحرر الأوطان ..

ولكن .. بالتبصر .. وطول النفس

إن مراجعة الفكرة أولا ..

خير من اقتحامها .. ثم النكسة .. ثم التراجع

أي : أن المراجعة خير من التراجع

أما عن غياب الاهتمام بحادث الأقصر .. فهو يعنى أمورا . منها :

١- هذا الانفصال الشبكى بين « بعض » الشباب وبين مجتمعهم

٢- وتلك خسارة كبرى :

خسارة للمجتمع الذى يحرم من أهم عناصره : طاقة وصفاء . وإخلاصا

وخسارة للشباب أنفسهم الذين تقطعت بهم الأسباب وتباعدت بينهم وبين الخبرة الأسباب .. ومن ثم لا يستطيعون « تصدير » طاقتهم .. ولا صفائهم ولا إخلاصهم .. ما دامت قنوات الاتصال هكذا متوقفة

٣- فتور الإحساس بدم الإنسان المراق ظلما .

والإنسان بنيان الله فى أرضه .. وقتله محادة له تعالى بهدمه . وإلا فأين إحساسهم الحاد بالأيدى الخفية وراء الحادث ..

وقد أشار القرآن إلى هذا فى الآيات التى تحدثت عن مقتل هابيل .. وقول الله تعالى بعدها

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا .. ﴾ الآية ..

من حيث ذكر اليهود من دون أجناس الأرض جميعا

ومرحبا بالحماس :

بالمقدار المنضبط ..

وفى أوانه ..

وفى مكانه وتحت إشراف أهل الذكر

أجل .. مرحبا بالحماس فى أوانه .. وفى مكانه ..

الحماس المصحوب بالنظرة الموضوعية المتأملة لواقع الناس اليوم حتى يكون تحركنا على بينة ..

من ملامح هذه النظرة :

يرى البصراء بعواقب الأمور واقع الحياة اليوم على النحو الآتى :

١- كان للتقدم العلمى المذهل .. وبخاصة فى مجال الاتصالات والمواصلات .. كانت له آثار خطيرة منها سقوط حواجز الزمان والمكان بين الأمم .

٢- ترك هذا التقدم آثاره على حياة الإنسان الغربى .. فأصبح يبحث عن السكينة والقرار هربا من سعار المادة وبلائها ..

٣- وإذن .. فالوقت مناسب للدعاة .. ليملأوا هذا الفراغ الناشئ عن هذا السعار..

٤- وهذا الدور الحتمى يفرض على الدعاة ما يلي :

أ - فهم الدين فهما صحيحا .. وتقديم النموذج الكامل المعبر عن حقيقة الإسلام .

ب- فهم الواقع فهما موضوعيا مستوعبا .. ليكون التعامل معه على هدى وبصيرة .

جـ - أن نعيش الحاضر مستلهمين عبر الماضى .. متطلعين إلى غد أفضل .. سائرين مع الركب الإنسانى . إلى مستقبل أفضل .. بأيدينا نوران : ذكر .. وحكمة..

نقدم بهما للناس الدليل على حتمية هذا البديل

لو أرادوا أن يكونوا شيئا مذكورا .

إن الدين الإسلامى كما قيل بحق : دين طيار .. ينتقل من قلب إلى قلب ..

بالحكمة .. والكلمة الطيبة .. فلقد انتشر بهما فى أربعة أخماس ما فتحه من البلاد بينما لم يفتح بالحرب إلا الخمس الباقى ..

واجبـــنا

١-يجب أن نعرف عدونا -كما قيل - على حقيقته .. لا كما تريده أن يكون..

وقد يراد : أنه قومى .. متعصب ..

ولكن الحقيقة أنه منطلق من قاعدة دينية ..

فلنواجهه على هذا الأساس :

لا على أساس القومية العربية

فقد أبعدت القومية .. أمما إسلامية من هذه القومية ..

ثم أدخلت فيها من لا يدين بالإسلام ..

إن غياب الإسلام فى عملية تحرير القدس غياب لعنصر فعال فى حل القضية..

٢- لابد من التعبئة العسكرية ..

وهذا واجب الدولة ..

والتعبئة الأخلاقية .. وهذا واجب الدعاة والمربين

٣- ثم .. لقد حرر « صلاح الدين» بيت المقدس ..

فما هى الخصائص التى تحلى بها .. والتى نحن فى حاجة إليها .. ليعيد التاريخ نفسه فنحرر القدس ظافرين ؟!!

لقد كان صلاح الدين .. كرديا .. ولكنه كان مسلما !!

وإذن .. فلكى نحرر الأقصى ..

فيجب قبل أن نعود إليه ..

أن نعود إلى الإسلام أولا ..

وواجب المسلمين .. أن يحسن كل عمله .. وقيمة كل امرئ ما يحسنه ..

وعلى المدى الطويل .. سوف يتحرك المارد .. بعد أن يستكمل عدته .. ليحرر فلسطين

[ليس من اللازم أن نملك قنابل ذرية بقدر أمريكا .. أو علماء بقدر روسيا ..

فليست البلاد التى تنقصها القنابل الذرية أو القوات الكبرى .. هى التى يجب أن تدعى دولا من الدرجة الثانية ..

بل ينبغى أن يطلق ذلك على البلاد التى تعوزها المثل ..

وهذه المثل تبقى .. وغيرها يفنى ..

إن أول ما نحتاج إليه هو :

معالجة الجهل المتفشى فينا .. بالحقائق الأولية للدين ...]

وليس هذا الكلام من عندى .. بل لو انفردنا بتقريره لما وجدنا آذانا صاغية.. من حيث صدر عن خادم للدين يبذل بضاعته .. **التى لا يملك غيرها** .. بينما الدنيا تسير بسرعة مذهلة .. ورجال الدين واقفون !!

ولكنه كلام القائد البريطانى : مونتجو مرى .. فى لحظة من اللحظات التى يحدد فيها موقف بلاده من الكتل العالمية المتصارعة ..

فيلفت النظر إلى ضرورة التمسك بالقوة الذاتية المنبعثة من حقائق الدين ..

هذه الحقائق التى تزرى بالقنابل الذرية .. والقوات الكبيرة .. بل إنها وحدها الباقية .. بينما تذهب غيرها سدى ..

ولا يقف عند هذا الحد :

بل إنه فى محاولته التركيز على قوة بلاده الذاتية يصرح بضرورة المحافظة على المسيحية .لأنها فضلا عن صلاحيتها كى تكون أساسا للحياة .. تصونها ضد الشيوعية العالمية التى تهدد الشعوب اليوم ..يقول :

[يجب أن يضمن الغرب المحافظة على تراثنا المسيحى ..

فذلك كفيل لمصاولة الشيوعية .. لأن العقيدة لا تكافح إلا بالعقيدة ..]

وقد يتعجب الإنسان حتى ينفذ منه العجب حين يسمع « دايان» الصهيونى نفسه .. وهو يتحدث عن الأرواح العلوية .. وعن الروح الإلهية .. حتى وهو يتحدث عن الزوارق المسروقة من فرنسا .

يقول « دايان » .

[إن الزوارق الستة . التى أبحرت دون أسلحة .

ودون حراسة . قد استطاعت التزود بالوقود فى البحر

ذلك لأنها لم تكن مزودة بأربعة محركات فحسب .

بل وأيضا بنعمة إلهية . وبروح علوية .

وهذا ما أشار إليه الكتاب المقدس :

كانت الفوضى تعم الأرض . وروح الله تشمل الماء]

وهكذا يبرز الملحد عنصر التدين ولو كان زائغا . يحرك به الجماهير فى اتجاه الهدف الذى يريده .

وهذا ما يؤكده صهيونى آخر :

[الصهيونية :هى العودة إلى حظيرة اليهودية .

قبل أن تصبح الرجوع إلى أرض اليهود] ؟!

ولا ننسى أن من بين ما يعلنه الجيش الإسرائيلى من مسابقات .. تلك المسابقات حول التوراة وحفظها .

أما بعد :

فمرحبا بالحماس .. ولكن بقدر .. حتى لا ينفد هذا الحماس يوما ..

ذلك بأن السراج المتوهج ينفد زيته سريعا !!

وقد حاولت الإجابة عن سؤال القدس وطريق تحريرها .. بهذه التأملات فى مفتتح سورة الإسراء .. فلعلها ترسم الطريق إلى الغد المأمول .

١- تفتتح سورة الإسراء .. بما يؤكد معية الله تعالى للذين اتقوا والذين هم محسنون [كما هو ختام سورة النحل قبلها]

ويعنى ذلك : أنه مهما ادلهمت الخطوب . وظن اليائسون بالله الظنون .. فإن نصر الله قريب .. كما كان الإسراء نصرا إليها بعد طول عناء .

﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾

٢- ويجئ الحديث عن بنى إسرائيل إشارة إلى العدو الأوحد لنا .. والذى يجعل من القدس مستراء آماله .. ونحن مطالبون ألا نمكنه من ذلك .

٣- ثم تحدثت الآيات عن إفسادهم فى الأرض مرة بعد مرة .. شأن من لا يعتبر بالأحداث .. فيسدر فى غيه .. متعاليا مستكبرا .

٤- على أن « تعاليهم » وتكبرهم ناشئ من فراغ أنفسهم ..

ذلك بأن فسادهم .. ثم إفسادهم يعنى : أنهم فارغون .. محطمون من الداخل..

وهم بهذا المعنى مهزومون نفسيا .. والانتصار عليهم أمر مفروغ منه ..

٥- ولكن .. من الذى ينتصر عليهم .. على يد من يكون هذا الانتصار المرتقب ؟

تقول الآية الكريمة : ﴿ بعثنا عليهم عبادا لنا أولى بأس شديد ﴾ .

أ - إنهم عباد الله .. له سبحانه وتعالى خاصة .. لا تحركهم فى جهادهم منافع أو مطامع أو توجهات أرضية .

والعباد كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى .. لهم خصائصهم النفسية والاجتماعية والتى منها :

يمشون على الأرض هونا ..

وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما

والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .

ثم هم أقوياء أسوياء .. مؤهلون نفسيا وعسكريا لخوض المعركة الفاصلة .. بالعمل .. لا بالدعاء

ومن بأسهم :

أنهم ليسوا كاليهود الذين يقاتلون من وراء جدر واقية .. وإنما هم يقاتلون على أرض مكشوفة يجوسون خلال الديار .. من بيت إلى بيت . حاملين أرواحهم على أكفهم فداء عقيدتهم .

وأولئكم الرجال حقا .. القادرون على استرداد بيت المقدس ..

وفى « صلاح الدين » العائد بهذا البيت الكريم من الخصائص ما يفرض علينا تمليها .. حتى إذا تسلحنا بمثل ما تسلح به من قيم كنا جديرين باسترداد القدس .. بدل البكاء على الأطلال .

ومن رحمة الله تعالى بنا أن أنزل علينا القرآن دليل هداية على طريق الكفاح:

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾

حتى لا تتوزعنا الأهواء .. فنكون لقمة فى فم الأعداء

وإذن .. فلابد من الدور البشرى أولا ..

لابد من توفر عنصر القدرة على التضحية ..

والفرق هائل بين : ما أريد .. وما أملك ..

فلنبذل ما نستطيع .. حتى نحصل على أعظم مانريد .

إن بعض الشباب اليوم يجيد حفظ النصوص ..

وعليهم – مع حفظها – أن يهضموها .. بدل أن ينقلوها ..

إنه [من الممكن أن يتغذى الشباب بفكر الآخرين .

ولكن لابد من هضمه للإفادة منه .

إن الأسد مكون من مجموعة من الخراف .. المهضومة ..

والتى تحولت بالهضم إلى أسد]

لابد من ثقافة عميقة الجذور :

[وليست جزئيات متناثرة :

من الممكن أن يقتل الأسد الغزالة مرة واحدة .. ثم يوزعها على عياله .

ولكنه ينتظر حتى يجمع أشباله .. ليعلمهم كيف يصطادون]

وما أكثر الذين يحفظون .. لكنهم لا يفهمون .. وإذا فهموا لا يعلمون !!

ما هو الفرق بين الحمد والشكر .. وإلى أى حد يجوز مدح الإنسان ؟

الحمد هو : الوصف بالجميل .. ويكون باللسان ..

لكن الشكر أعم .. لأنه يكون بالكيان كله .. على حد قول الشاعر .

أفادتكم النعماء منى ثلاثة

يدى . ولسانى . والضمير المحجبا

ويجوز مدح الإنسان . ولكن بشروط :

١- لانقول له : لك الحمد .. وإنما : هو صالح .. هو كريم .

٢- ولا نمدحه فى وجهه لقوله صلى الله عليه وسلم لمن مدح رجلا فى وجهه :

لقد قطعت عنقه

٣- وألا نبالغ فى المدح .. بل نصفه بما فيه .

إن حب الثناء طبيعة الإنسان مهما كان .. قال الشاعر .:

يهوى الثناء مبرز ومقصر

حب الثناء طبيعة الإنسان

لكننا فى مدحنا ملتزمون بهذه الشروط .. فرارا من غرور الممدوح لو مدحناه بما يتمناه .. لأنه إذا اغتر .. انقطع عن الجماعة .. فكأننا قتلناه أدبيا ..

وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم (قطعت عنقه)

فإذا آثرنا الصيغة الإسلامية وقلنا فلان صالح .. برز سؤال :

من الذى أصلحه .. ويكون الجواب :

من له الحمد كله وهو الله تعالى ..

وبذلك نكون قد حمينا الممدوح من الانقطاع عنا .. ليكون منا .. ومعنا على الطريق .

وبالله التوفيق .

فى زمان تنوعت فيه الثقافات وتضاربت ماذا على المسلم أن يفعل وسط هذا الركام ؟

تستمد الأمة ثقافتها من مصدرين :

١- من تراثها القديم

٢- ثم من ثقافة الأمم الأخرى .

ولأن هذه الثقافة مجهود بشرى .. فهى معرضة للخطأ .. كما هى معرضة للصواب ..

وإذا ضل غيرنا عن الصواب لأنهم يمشون فى الحياة بلا نور يكشف لهم معالم الطريق .. فإن أمة الإسلام مشمولة برعاية الله تعالى .. الذى أنعم عليها بنورين:

هما : ذكر .. وحكمة .

وإذن فهم يمشون .. ونورهم بين أيديهم يكشف لهم معالم الطريق ..

فهم غير معذورين إذا لم يستمدوا ثقافتهم من هذين المصدرين ..

وخاصة فى زماننا الذى طغت فيه المادية والإباحية .. والذى يفرض علينا عرض قضايانا الثقافية على هذين المصدرين .. لننطلق على هدى .. ولنضمن فى ضوئهما الكاشف أننا ماضون على الصراط المستقيم الواصل بنا إلى النجاح ..

ولا بأس بعد ذلك من الإفادة من أفكار الآخرين وتجاربهم ..

فالحكمة ضالة المؤمن : أنى وجدها فهو أحق بها .

أشك أحيانا فى عدد الركعات أثناء الصلاة .. فماذا أفعل ؟

يريد الإسلام أن يحرر إرادة المسلم حتى لا يحتلها الشيطان .. فهو يحميه من الوسوسة التى يفقد فيها المسلم السيطرة على هذه الإرادة ..

وفصل الخطاب هنا :

إذا كان ذلك الشك طارئا .. عارضا .. فشكك مثلا هل صليت ثلاثا أو أربعا .. فعليك أن تبنى على التيقن وهو الثلاث ..

أما إذا تكرر الشك .. فصار وسوسة فلا تهتم به . وامض فى صلاتك قبل أن يتخذها الشيطان فرصة لاستعبادك .. ذلك بأن الصلاة لله .. وينبغى ألا نمكن الشيطان منا أثناءها حتى لا يفسدها .

أما إذا عرض الشك بعد الفراغ من الصلاة .. فلا يعتد به وكذلك بعد الفراغ من الوضوء إذا كان الشك فيه.

كل ذلك .. حرص من الإسلام على ألا يكون المسلم لعبة فى يد الشيطان .. وقد أعاننا القرآن على الانتصار على الشيطان بالاستعاذة :

﴿من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس﴾

هناك ناس معروفون بمهاجمة الآخرين . والتشهير بالكرام ظلما .. فهل لى أن أتقى شرهم بالعطاء تفاديا لشرهم ؟

لا بأس أن يحمى المسلم عرضه قطعا لألسنة هؤلاء السفهاء . فى الوقت الذى يصون فيه لسانه عن مجاراتهم حتى لا يكون مثلهم فهؤلاء العابثون متخصصون فى مهاجمة الشرفاء .. تضييعا لوقتهم فيما لا يفيد .. وينبغى ألا نحقق أغراضهم بإحباط سعيهم ولو بالمال أو بالهدايا ..

بشــرط .. أن يكون ذلك بحكمة .. وبمقدار .. حتى لا يستغلها هؤلاء العابثون فرصة لابتزاز أموال العقلاء الشرفاء .

وقد جاء فى الأثر:

(ما وقى المرء به عرضه فهو صدقة)

ويعنى ذلك تحول المال المبذول إلى صدقة .. نشترى بها ماهو أغلى من المال وهو : كرامة الرجال.

ولاشك أن لهذا الأسلوب أثره فى إسكات المعتدين :

فنكف لسان الحاسد . ونستدفع ضرر المعاند .

وقد روى : أن رجلا امتدح الزهرى . فأعطاه قميصه . فلما عوتب فى ذلك قال :

إن من ابتغاء الخير .. اتقاء الشر.

ما معنى قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى .. ﴾ يوسف ١٠٩

فما هو المراد بالقرى . ولماذا كانوا من أهل القرى ؟

لسكان البادية خصائص معينة تميزهم عن غيرهم : فهم معروفون بصلابة البدن. وجفاء الطبع . ومن أجل ذلك لم تكن البادية أنسب الأمكنة لتلقى الرسالة ابتداء .. ومن رحمة الله تعالى أن بعث الرسل فى القرى ..

لماذا ؟

لأن أهل القرى :

من الناحية العقلية .. علماء أذكياء .

ومن الناحية العاطفية .. أرقاء القلوب .

ومن أجل ذلك كانت القرى أنسب الأماكن لتلقى الرسالة من حيث كانت خصائصهم تلك معينة على حسن التلقى وعمق الفهم ..

والمعنى : أن الرسل كما بعثوا على أكمل النسب . وأعظم الخلق . فإنهم كذلك بعثوا فى القرى .. لتكتمل كل عناصر النجاح ..

وهو درس من دروس الدعوة يطالبنا بحسن اختيار المكان المناسب والزمان المناسب لكى تؤتى دعوتنا أكلها كل حين بإذن ربها.

يخبرنا القرآن الكريم أن فى الخمر منافع .. فماهى تلك المنافع ؟

المقصود بالمنافع فى الآية الكريمة : المنافع الدنيوية : فقد تجلت التجارة فيها نفعا ..

ثم ماتفعله الأوهام برءوس الشاربين لتقنعهم بأن الخمر :

تنشط الجسم .

وتقوى الجبان .

وهى منافع ضئيلة إلى جانب ما تحمله من دمار فى صحة الإنسان النفسية والعقلية والجسمية ..

وإذا كان هناك من يجادل فى هذا مدعيا أنها تحدث نضارة فى الوجه وحمرة فيه ..

فإن الطب يخرس ألسنتهم حين يقرر مايلى :

أن ذلك الدم مسحوب من القلب .. وإذن .. فما قيمة مسحة من نضارة زائفة إلى جانب تحطيم القلب . بإفراغه من حيويته .

والعاقل يقرر : أن المفسدة إذا رجحت فى العمل كان ذلك العمل حراما .

ما معنى قوله تعالى:

﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ الأنعام ١٤٧

هناك أحكام شرعية مثل : فرضية الصلاة . والصوم والزكاة .

وهناك أيضا أحكام كونية : مثل : المرض . والكوارث التى تحل بالأفراد والأمم.

أما بالنسبة للأحكام الشرعية .. فالإنسان حر فى اختياره . فهو يملك أن يطيع : فيصلى . ويصوم . ويزكى .. ويملك أيضا أن يقصر . فلا يلتزم بما أمر به من هذه الفرائض وغيرها.

ومن رحمة الله تعالى أنه أعطى الإنسان حرية الاختيار فيما يتعلق بأوامر الشرع ونواهيه.

أما بالنسبة للأحكام الكونية مثل : المرض والكوارث . فإن الإنسان عاجز عن دفعها .. وهى نافذة فيه لا محالة .. ولا حيلة له فى الأمر.

والآية الكريمة تقول للرسول ﷺ :

إن كذبوك يا محمد فلم يطيعوا أمرك ولم ينتهوا بنهيك ..

فقل لهم : لقد رحمكم الله تعالى بهذا الدين فأعطاكم نعمة الاختيار . لكنكم تكبرتم وافتريتم ولكن غدا سوف يجئ بأس الله وعذابه الواقع بكم لا محالة ولا تستطيع قوة أن ترده .. ولئن استطعتم بالأمس أن تفلتوا من الأحكام الشرعية .. فلن تستطيعوا الإفلات من الأحكام الكونية غدا.

من خلال قصة يوسف عليه السلام ينشأ سؤال :

هل يجوز أن يمدح الإنسان نفسه ؟

قيل لحكيم :

ما الذى يذم وإن كان حقا ؟

فقال :

مدح الإنسان نفسه بالقول : صدقا أو ادعاء .

أما أن يمدح نفسه بالفعل .. فممدوح ..

وهذا ما نفهمه من قوله تعالى :

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾

وفى قصة يوسف عليه السلام شاهد بذلك فى قوله :

﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾

فهذا مدح بالأفعال .. لا بالأقوال .

فلم يطلب يوسف عليه السلام من الملك الولاية طمعا فى الوظيفة. ولكنه يطلب وضعه فى موقعه المناسب فى السلم الوظيفى .

ثم إنه يطلب ذلك بعد أن قرر الملك الاستفادة به فعلا بناء على خبرته التى ظهرت أماراتها.

على أن طلب الرجل ما يناسبه من عمل .. مزية له ..

وأين من هذا رجل يطلب ما لا يستحق .. مما لا يستطيع الوفاء به . فى الوقت الذى يحرم من هو أحق به وأهله .

قلت للطيار وهو يوشك أن يحلق بنا فى الجو : نحن فى بركتك اليوم .. فغضب قائلا : هذا شرك ! فما هو رأى الدين ؟

كان علماؤنا المخلصون . إذا سئلوا عن حكم مسألة تحرجوا أن يقولوا : هذا حلال. وهذا حرام . لأن الحكم بالتحليل والتحريم إنما هو لله تعالى وحده.

وكانوا يفضلون أن يقولوا :

يجوز .. بدلا من : حلال

ولا يجوز .. بدلا من : حرام

فكيف بعد ذلك يسمح مسلم لنفسه أن يحكم بالشرك على إنسان لمجرد كلمة يقولها . فيخرجه من الملة أو يحاول .. وبجرة لسان ؟!

إنه حتى إذا كان فى الكلمة رائحة الانحراف .. فينبغى حملها على أحسن محاملها .. حسن ظن بقائلها.

فكيف والكلمة هنا لا شئ فيها :

فالمسلم يخاطب المسلم أولا محكوما بعقيدة تؤكد أن النافع والضار هو الله تعالى وحده .. ومع ذلك فالدور البشرى له شأنه .. فى إطار هذه العقيدة..

وإذا كان المسلم مطالبا بتفويض أمره إلى من يملك أمره . ويقدر على نفعه وضره سبحانه . **فإنه لا مانع من أن أقول لقائد الطائرة : نحن فى بركتك اليوم ..** فإن الله تعالى قد جعلك سببا فى عودتنا سالمين إن شاء الله تعالى .. فالأمر لله أولا وآخرا .. والطيار مجرد سبب .

يقول علماؤنا : إذا وقع الإنسان فى مأزق .. ثم سأل غيره خلاصه . لم يخرج من حد التوكل . لأنه لم يحاول دفع مايخيفه بمعصية الله سبحانه.



القضاء والقدر



تمهيد :

مع سلامة العقيدة : يعتدل الميزان . ويصح المزاج.

ومع فساد العقيدة : يكون التمزق . ويكون الضياع.

وبهذا المقياس نقول :

إن المسلم بعقيدته : معتدل الميزان .. والمزاج معا : فهو يعلم من صفات الجلال ما به يحذر الآخرة..

ثم هو يعلم من صفات الجمال ما به يرجو رحمة ربه .. فهو على مايقول سبحانه وتعالى :

﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾

بل إن هذه العقيدة الصحيحة لتحميه من التمزق .. فهو بها فى مأمن من التقلبات:

فهو فى لحظات الرجاء .. ولحظات الخوف محكوم بضوابط يظل بها ماضيا على سواء الصراط :

فعندما يضج حوله بدواعى اليأس .. فى حالة الضعف .. أو الشيخوخة أو المرض المزمن .. أو تحدى الخصم الظالم القوى .. فى هذه اللحظات يكون رجاؤه فى الله تعالى أقوى .. اعتزازا بالله الأقوى .. واستهانة بمكر الإنسان الهزيل.

وإذا ما صح منه الجسم يوما .. ثم أقبلت عليه الدنيا بمغرياتها .. كان خوفه من الله تعالى أشد .. استهانة بأسباب الدنيا .. أمام قدرة خالق هذه الدنيا سبحانه وتعالى .

وقد حدثنا التاريخ عن نماذج من العابدين .. شكلت العقيدة سلوكهم فكانوا هداة أساة .

ومنهم تلك المرأة التى كانت ترى حزينة مهمومة فى الوقت الذى تساقط النعم عليها .. رطبا جنيا .

بينما ترى ضاحكة مستبشرة ساعة المصيبة .. على غير ما اعتاد الناس من حولها..

فلما سئلت عن ذلك قالت .

بعد النعمة يكون الحساب .. فأنا أخاف منه !

أما بعد المصيبة .. فيكون الفرج . فأنا أترقبه !!

وهكذا يظل المسلم بعقيدته ماضيا على الطريق السوى بينما يتدحرج أصحاب العقائد الفاسدة على جانبى الطريق..

ونقرأ فى هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[١].

مفرق الطريق :

وهذا هو مفرق الطريق بين فريقين تصورهما الآيات الكريمة أصدق تصوير:

فالإنسان .. فى غياب العقيدة الضابطة . مشتت الفكر . مشغول البال.. لايستقر على حال من القلق :

فإذا نزعت منه الرحمة وقع فى حفرة اليأس .. بل إنه مستعد لهذا التردى قبل أن تنزع منه الرحمة :

---

(١) هود ٩ : ١١ .

لأن الآية الكريمة لم تقل : [وقع فى اليأس . مثلا]

لكنها تؤكد وقوعه .. أو صلاحية هذا الوقوع دائما : ﴿ إنه ليئوس كفور ﴾.

فإذا جاءته النعمة وذاق طعمها بعد مرارة الضراء نسى ما كان فيه ، واستخفه الفرح بها .. مدلا بها على من لم يؤتها .. مستغرقا فى النعماء .. ناسيا واهبها سبحانه وتعالى .

لكن صاحب العقيدة له مع أحداث الحياة موقف آخر : فهو صابر .. ثابت الانفعال ثباتا تدعمه إرادة صابرة مصممة .. تستمد قوتها من عقيدة راسخة . وعمل صالح تجاه الأحداث . تتنامى به مشاعر الثقة فى كيانه .. الثقة بربه سبحانه. الذى يدخر له جزاءه العظيم : ﴿ أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

وإنه لجدير بمغفرة وأجر كبير جزاء مايقدم لأمته من خير على مايقول أعرابى يصف رجلا تقيا:

[فلان أفصح خلق الله تعالى إذا حدث.

وأحسنهم استماعا إذا حدث.

وأمسكهم عن الملاحاة إذا خولف.

يعطى صديقه النافلة .. ولا يسأله الفريضة.

له نفس : عن العوراء محصورة.

وعلى العالى مقصورة:

كالذهب الإبريز .. الذى يعز فى كل أوان ...

والشمس المنيرة .. التى لاتخفى بكل مكان .

هو النجم المضئ للحيران ..

والبارد العذب للعطشان ..]

وأولئك الذين اتقوا ..

واقع البشـر :

ولكن كثيراً من الناس جهلا منهم بمعنى القضاء والقدر تعودوا أن يرجعوا تقصيرهم إلى القضاء والقدر إما جهلا .. وإما تهربا من المسئولية التى تأخذ بخناقهم.

ومن ثم يحاولون نسبة الخير إلى أنفسهم .. أما فيما يتعلق بالشر فإنهم يجعلون من القضاء والقدر حجة لهم ودليلا .

على معنى أن الله تعالى إذا علم وجود المسببات فلابد من وجودها .. ولو منقطعة عن أسبابها . وهكذا تصوروا فالسعادة والشقاوة - فى زعمهم طبعا - قد سبق بها الكتاب .. وجف القلم ..

فلا فائدة إذن من وراء إتعاب النفس . ومحاولة الوصول إلى المقاص من طرقها التى جرت بها السنن الكونية ..

وقد تأدى بهم ذلك إلى نتيجة خاطئة هى : إهمال الدور البشرى فى عمارة الكون .. وهو دور مقرر معترف به . وهو مناط مسئولية الإنسان .. بل ودليل كرامته..

وقد غاب عن هذا الصنف الحائر ما تورطوا فيه من خطأ فادح :

فمن ظن القضاء والقدر هكذا .. عقيدة انهزامية .. فقد آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض . كما يقرر ذلك العارفون :

لأن الله تعالى كما علم الأشياء .. علم أيضا أسبابها وكيف أن هذه المسببات مرتبطة بهذه الأسباب .. أى أنه تعالى :

قضى الأمور قبل أن توجد ..

ثم إنها لاتوجد إلا بأسبابها من عمل الإنسان .. ومجموع ذلك كله هو القدر..

فمن علم فقط أن الله قضى عليه الأمر .. ثم لم يعلم بنفس القوة أن وجود ماقضاه تعالى مرتبط بسعى الإنسان فقد أعظم الفرية .

من حيث آمن ببعض الحق .. وكفر ببعض!

ومن أجل ذلك قال علماؤنا تصحيحا لهذا المفهوم الخاطئ :

إذا دعوت ربك وأنت آخذ بالأسباب فأنت إذن فى مقام الرجاء.

فواصل الدعاء .. والعمل .. والطرق

لابد أن تفتح له الأبواب

أما إذا دعوت وأنت جامد .. متواكل فأنت إذن فى مقام التمنى.

والأمانى بضاعة الحمقى .. والحكمة تقول :

وما نيل المطالب بالتمنى ∴ ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

أسئلة قديمة .. جديدة :

ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أن الحائرين مازالوا يطرحون هذه الأسئلة :

١- هل الإنسان مسير أم مخير ؟

٢- كتب الله سبحانه على الذنب .. فلم يعذبنى؟

٣- كان الله تعالى قادرا على أن يمنعنى من ارتكاب الذنب .. فلم لم يمنعنى سبحانه؟

وما ألحت هذه الأسئلة الحائرة على بعض الأذهان إلا لأنها لم تستوعب معنى القضاء والقدر ولو استوعبت .. لنجت من هذه الشبهات .

فالقضاء هو :

خطة الله تعالى الأزلية القديمة ..

حيث قضى سبحانه كل أمر فى الأزل ..

والقدر هو :

إبراز ما قضاه تعالى أزلا .. ليكون واقعا فيما لايزال.

وإذن فكل شئ بقضاء الله تعالى وقدره .. وإذا كان للإنسان مشيئته الخاصة .. فإنها لاتشكل دولة داخل الدولة كما نقول . وإنما هى مشمولة بمشيئته سبحانه وتعالى .

﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾[1].

منشأ الحيرة :

يقرر الباحثون أن خوض الناس فى مسألة القضاء والقدر . احتمال وارد .. له مايسوغه:

١- فالحق سبحانه وتعالى . غائب عن عباده بعلمه . وإرادته . وقدرته . وسائر كمالاته .

٢- وقد يتصف الإنسان بصفات هى فى الواقع صدى لكمالاته سبحانه .. فالإنسان جواد .. قادر .. مريد .. فى حدود بشريته طبعا.

٣- إحساس الإنسان بأنه حر.. مستقل.. يفتح عليه بابا من التساؤل : عن وضع هذه الحرية وهذا الاستقلال فى إطار المشيئة العليا.

٤- ومما يزيد فى تطلعه أن هناك أحداثا تقع فى الكون .. قد نهى الله سبحانه

(١) الإنسان ٣٠ .

وتعالى عنها .. فكيف تقع إذن ؟

ومن هنا كانت الحيرة.

وربما كان هناك عذر أمام الرجل العادى إذا ما دفعته مثل هذه الأمور ليخوض مع الخائضين فى القضاء[١]. أو كما قال علماؤنا .

مثال :

وقد تستبد به الحيرة عندما يرى جندى المطافئ ينجو من النار .. وقد كان فى لهيبها .. بينما مات الطفل الصغير .. حين صعقه التيار وأمه إلى جانبه ..

إلى غير ذلك من الأحداث التى لايجد لها تفسيرا معقولا فى نظره .

فما هو العلاج إذن ؟

يقول بعض الباحثين [٢]:

(إن مشكلة القضاء والقدر أعمق من أن تحل بالألفاظ والجمل والعبارات . وبما يسمونه العقل والفكر .

وإنما تحل بالإيمان :

إن من عرف ربه وضع الأمور فى نصابها .

ومن كان هذا شأنه فإنه يرى كل ماهو من الله تعالى خيرا).

ومعنى أن الإيمان هو الحل :

هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[٣].

---

(١)و(٢) راجع القضاء والقدر ، للشيخ ماهر إسماعيل .
(٣) الأنفال ١٧.

فالحق تعالى يخاطب أهل بدر .. كما يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم :

بأنكم قد باشرتم القتل فعلا .. لكن الذى قتلهم حقيقة هو الله تعالى ..

وحين رميت يا محمد فأصبت المرمى .. لم تكن أنت الذى أصاب الهدف ولكن الحق سبحانه هو الذى مكنك من ذلك .

ثم هو سبحانه يخاطب العلماء بقوله تعالى :

﴿ فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾[1].

فالعلماء الذين بحثوا وألفوا الكتب .. لم يكن بحثهم من فراغ وإنما علمهم هبة من الله تعالى..

ومعنى ذلك :

أن الدور البشرى فى صنع الأحداث واضح .. بل لابد منه أولا .. لتنجز القدرة الإلهية ما أراد الحق تعالى وجوده .. وذلك قوله تعالى .

﴿ .. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾[2].

وفى تاريخ أمتنا علماء أفذاذ .. استعلوا فوق لحظات الضعف .. فتجاوزوها .. ولم يستسلموا لعقدة النقص لتستنزف طاقاتهم ، وإنما جعلوا من الإحساس بالنقص سبيلا إلى الكمال .. وفوتوا على الشانئين بهذا الطموح أغراضهم ..

ومنهم العالم النحوى سيبويه :

لقد لحن سيبويه يوما .. فسخر منه السامعون سخرية آلمته ..

---

(١) البقرة ٢٣٩.

(٢) الأنفال ١١ .

لكنه .. وبدل أن يعتزلهم يجتر آلامه وهوانه .. نراه وقد عقد العزم على أن يتعلم علما يحميه من اللحن .. ويحميه فى نفس الوقت من سخرية الساخرين فكان أن تعلم النحو .. فكان فيه إماما.

وعلى طريقه سار ذلك الشيخ الجليل الذى كان يعالج عند طبيب يهودى ..

وسمع يوما أن طبيبه اليهودى تمنى لو قتله . فشفى بقتله غيظ قلبه .. وفى نفس اللحظة اتخذ العالم المسلم قراره الحكيم فقرر أن يتعلم الطب .. ونجا بحياته وحياة زملائه .. حتى لاتكون تحت رحمة طبيب كاره !

قال العلماء :

[تنسب الهداية أحيانا إلى الله تعالى . وأحيانا تنسب إلى العبد].

ومن معانى ذلك :

أن الله تعالى لم يجعل الهداية مباشرة منه ولكن العبد هو الذى يباشر أسبابها.. فيضله تعالى أو يهديه .. وذلك قوله تعالى :

﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾

فالله تعالى هو خالق الهداية .. لكن العبد هو الذىّ باشرها .. فالجهة كما يقولون منفكة ولو أنه تعالى باشر الهداية والإضلال ثم عاقب عليها .. لكان ذلك ظلما .. حاشا لله تعالى . ويتضح ذلك المعنى فى ضوء قوله تعالى :

﴿ فلما زاغوا .. أزاغ الله قلوبهم ﴾

وقوله تعالى ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾

وقوله سبحانه ﴿ إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب ﴾

وهكذا.

لم يكره الله تعالى أحدا - على الهداية . ولا على الضلال - . وإنما كلاهما اختيار العبد ابتداء فالعبد هو المسئول : وليتحمل نتيجة اختياره :

فإذا منحه الله قلبا .. وعينين .. وأذنين ولسانا وشفتين . ثم سخرهما فيما خلقت له فهو الملوم.

ومن أجل ترسيخ العقيدة الإيجابية يقولون :

لاتصدق المعرفة إلا باللمس .

واللمس لايتحقق إلا بدقة الحس .

وذلك لايكون إلا باستحضار العقيدة فى وعيك لكل ما تثمره من مصابرة .. وتوكل .. ويقين هذه العقيدة التى تقول لك ..

(نحن مع القدر : بشر .. لا حجر .

فإذا قلت لى :

فلان يحذر .. فينجو.

وآخر لا يحذر .. فلا ينجو .

فإنى أقول لك :

لماذا نجا الأول ؟!)

وذات يوم قال الملحد للعبد الصالح :

من أين تأكل ؟

قال : من خزائن الله تعالى .

قال الملحد :

ينزل عليك الخبز من السماء ؟!

فقال المؤمن :

لو لم تكن الأرض له .. لأنزله على

فقال الملحد :

أنتم تقولون كلاما ..

فقال المؤمن :

وهل ينزل من السماء إلا الكلام ؟!

فقال الملحد .. وهو يتراجع متخاذلا ..

لا أستطيع مغالبتك !

وطبعا لايستطيع مغالبته .. لأن سلاح المؤمن هنا ليس شقشقة اللسان .. وإنما واجهه بما معه من إيمان .. فكسب الجولة .

وهكذا المؤمن دائما .. يمضى على الصراط المستقيم فى ضوء عقيدته الكاشفة .. وخطته فى الحياة هى :

لو علم أن الله تعالى معذب واحداً .. فقط .. لخاف أن يكونه ..

ولو علم أنه تعالى راحم واحدا .. فقط .. لرجا أن يكونه..

ولو أنه تيقن من عذابه لاجتهد فى العبادة حتى لايعود على نفسه بلائمة.

ثم يمضى المؤمن عاملا آملا .. مدفوعا بعقيدة الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره.. التى لاتقعد به منزوياً فى مغارة أو مدخل .. ولكنه يرمى بنفسه فى ساحة المخاطر:

مغموساً بالدم ..

أو مبللاً بالعرق

أو ملطخاً بالطين

لايكل .. ولايستكين !

وبينما السفهاء من الناس يمضون فى صحراء واسعة الأرجاء . بلا رجاء ..
فالمؤمنون بقضاء الله وقدره يمضون : عمليين فى سلوكهم :

لايحاولون كشف سر القدر ..

ولكنهم يحاولون أن يستفيدوا من حكمة هذا القدر !

ومن ثمرات ذلك . تمكن سجية الإقدام والجرأة فى مواجهة الأحداث العظام
والمصائب الباغتة : التى تنشق لها - كما قيل - مرائر النمور.

والتى تسلح المؤمن بعزم يزين له الخروج من كل عزيز لديه ، بل من حياته
ذاتها.. لتبقى عقيدته حية فى الصدور..

ومن ثم لا يجد اليأس إلى قلب هذا المؤمن سبيلا ..

يقول بعض الباحثين :

(ليس القدر تصادق إرادات ..

ولكنه تسابق هذه الإرادات ..

كما وأنه ليس قهرا كونيا لمخلوقات ضعيفة تساق عمياء .

ولكنه يوحد النفس لتنطلق إلى أهدافها وحدة لاتعرف التمزق..

هذا التوحد الذى تستنزل به النفس رحمة السماء التى تأخذ بيدهم إلى غايات
ماكانوا ليصلوا إليها منفردين.

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم: لقد فهموا المعادلة هنا .. فحلوا

رموزها .. ثم حاولوا الانسجام مع أحداث الكون .. فانطلقوا قوة كونية فحققت أهدافها .

بينما بقى غيرهم فى مهمة واسعة الأرجاء بلا رجاء فسقطوا)

ذلك بأنه فى غياب الإيمان .. وتورم الشعور بالنفس .. وأنها مستقلة الإرادة .. ولاتدرك إرادته سبحانه .. فى هذه اللحظة يكل الله تعالى الإنسان إلى قوته وحوله .. فيفشل .. لأنه لاحول ولا قوة إلا بالله تعالى .

وأين هذا من الفهم العميق المتراحب لمشيئة الله تعالى والذى عبر عنه عمر وهو قادم من الشام إلى الحجاز :

أفر من قدر الله إلى قدر الله.

إن العلم ليس من صفات التأثير حتى يتخذ ذريعة إلى التهرب من المسئولية.

إن الله تعالى قد علم أن هذا العبد سيسرق يوما . فهل علمه تعالى هو الذى حمله على السرقة ؟ لا .. العلم كاشف.

أما الذى أحدث السرقة فهو العبد نفسه - فى إطار من مشيئته تعالى -.

وهذا الذى يقول : لماذا لم يمنعنى سبحانه من مباشرة الذنب..

ويجيب بعض العلماء هنا ساخرا :

لقد منحكم الله الإرادة الحرة نعمة منه تعالى .. وأنت بهذا السؤال تريد أن تتخلص من هذه النعمة لتكون جمادا .. أو تكون حيوانا ..

وهل يرضى المؤمن أن يجعل شكر نعمة ربه كفرا بها .

قال الفلاح : لماذا يعذبنى بذنب كتبه سبحانه على ؟

وهى كلمة حق أريد بها باطل :

هى حق :

لأن الله سبحانه علم الذنب فعلا.

وكتبه عليك ..

وهو الذى يعذبك عليه أيضا ..

ولكن السؤال باطل لأنه محاولة لإحباط الدور الإنسانى فى القضية..

فكأنما الإنسان ريشة معلقة فى مهب الرياح .. بلا إرادة ..

مع أن الدور البشرى فى صنع الأحداث مؤكد .. لتصح المسئولية ويستقيم الجزاء.

يقول الحق سبحانه :

﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

ويقول تعالى :

﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾

فالتغيير يبدأ من الإنســـان ..

ثم ينجز الله تعالى ماقدره .. على أن يظل للإنسان دوره ..

فأنت تقاتل الكفار ..

والله تعالى يعذبهم بهذا الجهاد ..

لكن ذلك لايلغى أنك سلاح من أسلحة القدر يعذبهم الله بك .. بك .. ولا يعذبهم لك .

ويعنى ذلك : أن يأخذ العبد بالأسباب .

وعلى الله سبحانه النتائج :

وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم :

(احرص على ما ينفعك)

وهذا هو دورك فى الأخذ بالأسباب ..

ثم كان قوله (واستعن بالله)

موضحا معنى التوكل على الله تعالى ... وإلا فغياب حرصك على ماينفعك وعدم أخذك بالأسباب .. يجعل منك إنسانا متواكلا .. لا متوكلا ..

ومن هنا كان من شروط الدعاء أن يكون طلبا للممكن :

سأل أحد الأنبياء ربه سبحانه أن يرد عنه ألسنة الناس فقال سبحانه هذه لم أجعلها لنفسى .. فكيف أجعلها لك ؟!!

فلتدع بالنجاح .. وزيادة الرزق مثلا .. وهو مما يكون لك دور فى تحققه بمباشرة أسبابه .

يقول ابن القيم فى كتابه : « شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل :

[والله تعالى ماض فى العبد حكمه . عدل فى عبده قضاؤه. فإنه إذا دعا عبده إلى معرفته ومحبته .. وذكره وشكره . فأبى العبد إلا إعراضا وكفرا.. قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره . وصده عن الإيمان به . وحال بين قلبه وبين قبول الهدى .

وذلك عدل منه فيه .

وتكون عقوبته بالختم والطبع والصد عن الإيمان . كعقوبته له بذلك فى الآخرة مع دخول الناس . كما قال :

﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾.

فحجابه عنهم إضلال لهم . وصد عن رؤيته . وكمال معرفته .كما عاقب قلوبهم فى هذه الدار بصدها عن الإيمان . وكذلك عقوبته لهم بصدهم عن السجود له يوم القيامة مع الساجدين . هو جزاء امتناعهم عن السجود له فى الدنيا . وكذلك عماهم عن الهدى فى الآخرة عقوبة لهم على عماهم فى الدنيا.

لكن أسباب هذه الجرائم فى الدنيا كانت مقدورة لهم . واقعة باختيارهم وإرادتهم. وفعلهم .

وقوله تعالى أيضا :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون ﴾ فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو : الانصراف. وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره. لأنهم ليسوا أهلاً له.

فالمحل غير صالح ولا قابل . فإن صلاحية المحل بشيئين : حسن فهم . وحسن قصد.

وهؤلاء: قلوبهم لاتفقه . وقصودهم سيئة . وقد صرح سبحانه بهذا فى قوله :

﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص وهو : الكبر . والتولى . والإعراض .

فالأول : مانع من الفهم .

والثانى مانع من الانقياد والإذعان].

أما بعد :

[فالإيمان بالقدر حياة .. لأنه يفتح لك فى كل ظلمة شعاع ضياء ..

وفى كل عثرة باب رجاء . ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه . قبل أن يميته المرض . ويقتل الجندى فى الحرب من خوفه . قبل أن يقتله العدو . ولولا الرجاء ما كانت الحياة .

ولو تركت الأمور لاحتمالات العقل . وقوانين المادة . لما استطعت أن تتنفس الهواء . أو تشرب الماء . خشية أن تكون فيه جرثومة داء .

ولا ركبت سيارة . لاحتمال أن تصطدم . ولا صعدت بناء . لإمكان أن ينهدم . ولما استولدت ولدا . لأنه قد يموت . ولا اتخذت خليلا لأنه قد يخون . ولا اطمأننت على مال . لأنه قد يسرق . ولا دار لأنها قد تحرق .

والإيمان بالقدر راحة : لأنه لو كان الفشل من عملك وجدك .

وكان النجاح من صنع يدك لقطعت نفسك أسفا إن فشلت أو سبقت .

والإيمان بالقدر عزاء : لأنك إن قدر عليك المصاب بولد .. فاحمد الله . ففى الناس من أصيب بولدين .

وإن خسرت ألف ففيهم من خسر ألفين .

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر ؟

هى : أن نجد . ونعمل . ونسعى . ونبذل الجهد .

ثم لا نحزن إن فشلنا . ولا نيأس إن لم نصل إلى ما نريد .

وأن يكون مع القدر كمن يجتاز طريقا فيه السيارات المزدحمات :

فإن من ذكر حوادثها وأخطارها وحدها .. لم يستطع أن يتقدم خطوة .

وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارة المقبلة ويدفع الخطر الآتى .. لم يسلم .

ولكن : إن انتبه . وسار بحذر . فهذا هو العاقل .

ثم إن نجا حمد الله تعالى أن قدر له النجاة . وإن أصيب : ذكر أنه لم يقصر . وإنما هو حكم القدر](١)

والذين فهموا القضاء والقدر هكذا :

أولئك هم أولوا الألباب الذين وصفهم العارفون فقالوا :

ألباء : يفهمون مغزى الحياة : الحياة الدنيا .. والدار الآخرة .

أصحاب همم عالية :

يعملون للآخرة .. ولا ينسون نصيبهم من الدنيا

أفئدتهم سليمة .. كأنها قلوب الطير : براءة وطهرا .

قصرت آمالهم .. فطالت أعمالهم ..

بينما الناس حولهم :

تطول آمالهم .. فتقصر أعمالهم

يبكون على موت القريب ولا يبكون على موت القلوب !

فلتكن لنا فى هؤلاء الأبرار أسوة حسنة :

ولنستعد للرحلة من الدنيا ..

وهبك عمرت طويلا :

فهل العمر .. إلا أعوام ..

هل الأعوام .. إلا أيام ..

وهل الأيام .. إلا أنفاس ..

ألا ما أسرع الفناء إلى أعمار الناس ..

---

(١) صور وخواطر ١٢٥ : ١٢٦ .

مادامت تنقضى بالأنفاس ..

الأنفاس التى تتردد فى صدرك .. كل لحظة ..

إنها خطواتك الفساح .. من الدنيا .. إلى الآخرة !

وقد تسألنى .. وأنت المسرف على نفسك :

من أين أبدأ ؟

ويجيبك العبد الصالح :

أحسن فيما بقى .. يغفر لك ما مضى ..

وإلا .. فإن أسأت فيما بقى ..حوسبت على مابقى .. وما مضى .

ولتذكر دائما .. عثرات الطريق .. وعليك أن تتوقف .. لتتساءل عن السبب.. لتستأنف المسير :

إن عقبات الطريق .. إن تكدير العيش .. مردود إلى سببه :

إلى نعمة .. لم تشكر ..

وذنب .. لم تستغفر الله منه ..

فكن عبداً ذاكرا .. أوابا .. رجاعا إلى سيدك ..

وهو سبحانك .. حفى بالتائبين العائدين .

وما أحوجنا إلى وقفة نحاسب فيها أنفسنا على :

كم نعمة .. نسيناها .. أو سخرناها فى غير ما كانت له ؟

وكم من ذنب لا نحس به بما كان غيبة .. كلمة .. لا تلقى لها بالا .. تهوى بها فى النار سبعين خريفا !

ونعوذ بالله من الخذلان

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٣٧٢٥



مطبعة التوحيد شبين الكوم ت : ٠٤٨/٢١٥٤٢٠